غابرييل غارسيّا ماركيز

رحلة إلى البلدان الإشتراكيّة

٩٠ يومًا وراء الستار الحديديّ

مكتبة

ترجمة
وضّاح محمود

التنوير

غابرييل غارسيّا ماركيز

رحلة إلى
البلدان الاشتراكيّة

90 يومًا وراء الستار الحديديّ

الكتاب: رِحلة إلى البلدان الاشتراكيّة، 90 يومًا وراء الستار الحديديّ
تأليف: غابرييل غارسيّا ماركيز
ترجمة: وضّاح محمود
عدد الصفحات: 192 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-270-1
الطبعة الأولى: 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
VIAJE POR EUROPA DEL ESTE
by Gabriel García Márquez
© GABRIEL GARCÍA MÁRQUEZ, © 1957 and Heirs of GABRIEL GARCÍA MÁRQUEZ.

الناشر

دار التنوير

لبنان: بيروت- الرملة البيضاء- بناية بنك لبنان والخليج- الطابق الثاني
هاتف: 009611797434
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

غابرييل غارسيّا ماركيز

رحلة إلى البلدان الاشتراكيّة

٩٠ يومًا وراء الستار الحديديّ

ترجمة
وضّاح محمود

مكتبة
t.me/soramnqraa

التنوير

المحتويات

تقديم 7

1 – «الستار الحديديّ»: عارضة خشبيّة مطليّة بالأحمر والأبيض.... 9

2 – برلين مكانٌ للهذيان 21

3 – المجرّدون من المِلكيّة يجتمعون ويبثّون أحزانهم... 33

4 – في نظر المرأة التشيكيّة، جوارب النايلون جوهرة ثمينة 49

5 – سلوك الناس اليوميّ في براغ لا يختلف عنه في أيّ بلد رأسماليّ..... 63

6 – بعيون يقظة على بولونيا وهي تغلي..... 77

7 – الاتّحاد السوفياتيّ 22 مليونًا و400 ألف كيلومتر مربّع ليس فيها دعاية واحدة من دعايات الكوكاكولا 105

8 – موسكو أكبر قرية في العالم 119

9 – في ضريح الساحة الحمراء، ستالين ينام قرير العين 135

10 – السوفيات يبدأون بالتململ من المفارقات 153

11 – لقد زرت هنغاريا بنفسي 163

تقديم

في صيف العام 1957 قام غابرييل غارسيّا ماركيز برِحلةٍ إلى البلدان الاشتراكيّة استمرّت ثلاثة أشهر، بدأها بألمانيا الشرقيّة فبولونيا ثمّ تشيكوسلوفاكيا، واختتمها أخيرًا في موسكو، حيث حضر المهرجان الدولي السادس للشباب، والتقى أشخاصًا ومسؤولين في الدولة.

آنذاك، كان يعيش في باريس ويعمل مراسلًا صحافيًّا لصحيفة «مومنتو» الفنزويليّة. وبعد عودته من موسكو، كتب عشرة فصول عن رحلته تلك، نشرها تباعًا في مجلة «كروموس» الكولومبيّة، بين شهري تمّوز وأيلول من العام 1959، وتحدّث فيها بصراحة ووضوح عمّا رآه وعايشه في تلك البلدان، فكلّفه ذلك غضبَ شيوعيّين كثيرين، بل بعض الاتّهامات بالعمالة للرأسماليّة والولايات المتّحدة الأميركيّة أيضًا.

وبعد فترة وجيزة من تلك الرحلة، تمكّن ماركيز من زيارة هنغاريا أيضًا، بعد أن كانت منقطعة عن العالم ومعزولة عنه بسبب الحوادث المأساويّة التي عصفت بها في خريف العام 1956، فكتب فصلًا إضافيًّا عن انتفاضة بودابست، مستعرضًا أسبابها ونتائجها.

في العام 1978 جُمعت تلك الفصول في كتاب نُشر تحت عنوان «رحلة إلى البلدان الاشتراكيّة: 90 يومًا وراء الستار الحديديّ»،

ثمّ ضُمّ هذا الكتاب لاحقًا إلى مجموع أعمال ماركيز الصحافيّة. ويبدو أن الكتاب صدر في بعض الطبعات بعنوان آخر: «رحلة إلى أوروبا الشرقيّة».

الناشر

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

-1-

«الستار الحديديّ»
عارضة خشبيّة مطليّة بالأحمر والأبيض

ليس الستار الحديديّ ستارًا ولا هو من حديد، بل إنّه مجرّد حاجز مكوّن من عارضة خشبيّة مطليّة بالأحمر والأبيض مثل إشارات صالونات الحلاقة والتجميل. وبعد أن أمضيت وراءه ثلاثة أشهر، أدركت أنّه كان من قلّة البصيرة أن أتوقّع منه أن يكون ستارًا فعلًا، أو أن يكون حقًّا من حديد. لكنّ اثنتي عشرة سنة من الدعاية الغربيّة الدؤوبة، لها قدرة على الإقناع أكثر من أيّ منظومة فلسفيّة بأكملها، وما الضخّ الإعلامي في الصحف على مدار الساعة غير وسيلة تؤدّي إلى تغييب الحسّ السليم عند المرء، حتّى يعتقد أن المجاز حقيقة، وأن الصورة واقعًا.

كنّا ثلاثة رفقاء في تلك المغامرة: جاكلين، وهي فرنسيّة من أصول هندو-صينيّة، تعمل مصمّمة في إحدى المجلّات الباريسيّة. وشخص ثانٍ اسمه فرانكو، وهو إيطاليّ محبّ للتجوال، يعمل مراسلًا لبعض المجلّات في ميلانو من حين إلى آخر، ولا مقرّ له إلّا حيث يداهمه الليل. أمّا الثالث فكنت أنا وفقًا للبيانات المدوّنة في جواز سفري. بدأت الحكاية في أحد مقاهي فرانكفورت، في

الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن عشر من شهر حزيران. كان فرانكو قد اشترى سيّارة فرنسيّة لقضاء الصيف، ولم يكن يدري ما هو فاعل بها، فاقترح علينا «أن نذهب ونرى ما يجري وراء الستار الحديديّ». وكان الجوّ ملائمًا تمامًا للسفر، إذ صادف صباحًا من أواخر أصباح الربيع.

لم تكن الشرطة في فرانكفورت على علم بالإجراءات الإداريّة اللازمة كي يعبر المرء بسيّارته من ألمانيا الغربية إلى ألمانيا الشرقيّة، فالبَلَدان ليس بينهما علاقات دبلوماسيّة ولا تجاريّة، ولا يصل بينهما إلّا قطار ينطلق كلّ ليلة إلى برلين، عبر ممرّ محدّد، ولركوبه لا يحتاج المرء أكثر من جواز سفر ساري المفعول. غير أنّ هذا الممرّ ليس إلّا نفقًا ليليًّا مظلمًا، يبدأ في فرانكفورت وينتهي ببرلين الغربيّة، تلك الجزيرة الصغيرة التي تنتمي إلى الغرب ويحيط بها الشرق من الجهات كلّها.

إنّ الطريق البرّيّة، المخصّصة للسيّارات، هي الوسيلة الوحيدة لاختراق الستار الحديديّ فعلًا. لكنّ سلطات الحدود شديدة الصرامة حتّى إنّ الأمر، على ما يبدو، لا يستحقّ أن نخاطر ونذهب بلا تأشيرة دخول رسميّة، لا سيّما أنّ سيّارتنا نمرتها فرنسيّة. أبدى لنا القنصل الكولومبيّ في فرانكفورت قلقه، إذ قال بإسبانيّته المتحفّظة التي تميّز سكّان مدينة بوبايان: «عليكم الحذر والانتباه»، ثمّ أضاف: «تصوّروا، هذا كلّه تحت سيطرة الروس». أمّا الألمان فكانوا أكثر صراحة وأنذرونا بأنّ آلات التصوير والساعات وجميع حوائجنا الشخصيّة الثمينة ستُصادر في حال تمكنّا من العبور،

ونصحونا بأن نحمل معنا طعامًا ووقودًا إضافيًّا كي لا نضطرّ للتوقّف خلال المسافة التي تفصل برلين عن الحدود، وتبلغ ستّمائة كيلومتر طولًا، ثمّ حذّرونا قائلين إنّنا نخاطر على أيّ حال بتعريض أنفسنا لنيران بنادق الروس.

وهكذا لم يتبقّ لنا من مخرج غير الاتّكال على المصادفة. فأمام التهديد الذي يلوح في الأفق وينذرنا بقضاء ليلة أخرى في فرانكفورت، نشاهد خلالها فيلمًا ألمانيًّا آخر وباللغة الألمانيّة أيضًا، أجرى فرانكو قرعة على الرحلة مستعينًا بقطعة نقود معدنيّة: طرّة أم نقشًا؟ وجاءت نقشًا، فقال:

- أوكي، وعندما نصل إلى الحدود نتظاهر بالغباء.

إنّ شبكة الطرق السريعة، المذهلة، التي أنشأها هتلر لينقل عبرها ماكيناته الحربيّة الجبّارة، تخترق شطري ألمانيا وتغطّيهما. وقد كانت سلاحًا ذا حدّين، ذلك أنّها سهّلت تغلغل الحلفاء أثناء الحرب. لكنّها أصبحت إرثًا عظيمًا في زمن السلم. كان يمكن لسيّارة مثل سيّارتنا أن تسير على هذه الطرق بمعدّل ثمانين كيلومترًا في الساعة وسطيًّا، لكننا عجّلنا وسرنا بسرعة مائة بغية الوصول إلى «الستار الحديديّ» قبل حلول الظلام.

عند الساعة الثامنة مساءً اجتزنا آخر قرية من العالم الغربيّ، وأثناء مرورنا ألقى علينا سكّانها -لا سيّما الأطفال منهم- سلامًا ودّيًّا تعتريه الحيرة، فبعضهم لا بدّ وأنه لم يكن قد رأى في حياته كلّها سيّارة فرنسيّة، من قبل. بعد عشر دقائق تفحّص أحد العساكر الألمان الغربيّين جوازات سفرنا تفحّصًا شكليًّا تمامًا، وكان في

هيئته مطابقًا للعساكر النازيّين الذين يُشاهَدون في الأفلام، لا بسبب ذقنه المربّعة العريضة وزيّه المرصّع بالأوسمة وحسب، إنّما بسبب لكنته عند التكلّم بالإنكليزيّة أيضًا. وبعد ذلك حيّانا تحيّة عسكريّة وأذِن لنا بعبور المنطقة العازلة التي تمتدّ على مسافة 800 متر، مقفرة من كلّ شيء، وتفصل بين العالمين. لم نرَ هنا معسكرات الاعتقال والتعذيب ولا الأسلاك المعدنيّة الشائكة، المكهربة، الذائعة الصيت، والممتدّة على مسافات لا متناهية. بل رأينا شمس الأصيل تغرب على مهل عن أرضٍ خاليةٍ من الزرع التي لا تزال تبدو محفّرة من وقع أحذية الجنود وقعقعة السلاح، تمامًا كما في اليوم الذي أعقب انتهاء الحرب. ذلك كان هو الستار الحديديّ.

كان حرس الحدود يتناولون الطعام، فأشار لنا الجنديّ المناوب أن نوقف سيّارتنا حتّى ينتهي رفاقه من العشاء، وكان شابًّا صغيرًا يرتدي زيًّا عسكريًّا بائسًا ومتّسخًا، كبيرًا عليه قليلًا، مثل الحذاء الذي ينتعله والبندقيّة الآليّة التي يحملها.

انتظرنا أكثر من ساعة فحلَّ علينا الظلام ولم تُضأ المصابيح. على الجانب الآخر من الطريق، بدت محطّة القطار، وكانت بناءً خشبيًّا مغطّى بالغبار، شبابيكه وأبوابه مغلقة. في هذا الجو المعتم، الغارق في الصمت، أخذت روائح الطعام الساخن تفوح.

– الشيوعيّون يأكلون أيضًا، قلتُ كي أُبقِيَ على معنويّاتنا عالية.

كان فرانكو يغفو على المقود، فأجاب:

– أجل. رغم كلّ ما تروّج له الدعاية الغربيّة.

قبل العاشرة بقليل أُضيئت المصابيح، فطلب منّا الجنديّ

المناوب أن نقترب من عمود الإنارة كي يدقّق جوازات سفرنا. تفحّص كلّ صفحة من الصفحات كمن لا يحسن القراءة والكتابة، إذ بدا على محيّاه المَكر والذهول في آن معًا. وبعد ذلك رفع الحاجز وأشار لنا أن نتوقّف على بعد عشرة أمتار، أمام مبنى خشبيّ مسقوف بالزنك، شبيه بصالات الرقص في أفلام الكاوبوي. وهناك، أتانا جنديّ أعزل، عمره من عمر زميله الآخر، فقادنا إلى نافذة حيث كان بانتظارنا شابّان آخران يرتديان الزيّ العسكريّ أيضًا، وقد بَدَوَا ذاهلَيْن أكثر منهما جلفَيْن، لكنّ ملامحهما خلَت من أيّ أثر للمودّة. أُصِبْتُ بالدهشة من أن تُوكَل حراسة بوّابة المعسكر الشرقيّ العظيمة إلى مراهقَيْن غير أَكْفاء ونصف أمّيَّين.

استعان الجنديّان بريشة من القصب ومحْبَرة لها سدادة من الفلّين كي ينسخا بياناتنا الشخصيّة كما هي في جوازات سفرنا، وكانت تلك عمليّة شاقّة؛ إذ شرع أحدهما يُملي البيانات على زميله الذي أخذ يدوّن ما يسمعه من أصوات فرنسيّة وإيطاليّة وإسبانيّة، ويخطّها بخربشات بدائيّة شبيهة بخطّ تلاميذ المدارس الريفيّة النائية. ثمّ تشرّبت أصابعه بالحبر، فصرنا جميعًا نتصبّب عرقًا وتحمّلنا الكثير حتى وصلنا إلى اللحظة البائسة التي أمكنهما فيها إملاء مكان ولادتي وتدوينه: «أراكاتاكا».

عند النافذة التالية صرّحنا بما نحمل من نقود، لكنّ تبديل النافذة لم يكن إلّا مسألة شكليّة، إذ استقبلنا فيها الجنديّان أنفسهما، اللذان كانا عند النافذة الأولى. أخيرًا، وعند نافذة ثالثة تعيّن علينا أن نملأ استمارة مكتوبة باللغتين الألمانيّة والروسيّة، نذكر فيها مواصفات

السيّارة كلّها، وقد فعلنا ذلك بالإشارة. وبعد نصف ساعة من الإيماءات والإشارات العجيبة والصراخ واللعنات بخمس لغات، أدركنا أنّنا علقنا في أحجية ماليّة معقّدة: بلغت رسوم إدخال السيّارة عشرين ماركًا شرقيًّا. والبنوك في ألمانيا الغربيّة تصرف الدولار بأربعة ماركات غربيّة، أمّا في ألمانيا الشرقيّة فإنّها تصرفه باثنين شرقيّين فقط، مع أنّ الماركَيْن الغربيّ والشرقيّ متساويان. فالمشكلة إذًا أنّ السيّارة ستكلّفنا عشرة دولارات، إن دفعنا بالدولار؛ ولن تكلّفنا غير عشرين ماركًا غربيًّا، أي خمسة دولارات فقط، إن دفعنا بالمارك الغربيّ.

عند هذا الحدّ -ونحن ساخطون ومنهكون من الجوع- كنّا قد ظننا أننا اجتزنا حواجز الستار الحديديّ كلّها وانتهينا منها، فإذا بمدير حرس الحدود يُقبل نحونا. كان رجلًا جلفًا في قسماته وحركاته، يرتدي بنطلونًا من القماش القطنيّ الخام، المتّسخ، وسعه أسفل الساق أربعون سنتمترًا، وعليه سترة بالية من القماش السميك، بدت جيوبها المجعّدة مملوءة بالأوراق وفتات الخبز. خاطبنا بالألمانية، ففهمنا أنّه علينا أن نتبعه. خرجنا إلى طريق مقفرة يكاد لا ينيرها شيء غير طلائع النجوم في السماء، فعبرنا سكّة الحديد والتففنا حول محطة القطار ثمّ دخلنا قاعة كبيرة مخصّصة لتناول الطعام، تعبق برائحة الطبيخ الذي تناوله الحرس منذ قليل، وفيها طاولات منخفضة، كلّ واحدة منها تتّسع لأربعة أشخاص وحولها صُفّت الكراسي صفًّا. عند الباب رأينا جنديًّا يحمل بندقيّة آليّة، ويقف بالقرب من طاولة عليها كتُب ماركسيّة وكرّاسات للدعايّة

السياسيّة، معروضة بوضوح. كنّا أنا وفرانكو نمشي إلى جانب المدير، وجاكلين وراءنا على مسافة أمتار قليلة، تتبعنا وهي تجرّ كعبَيْ حذائها على خشب الأرضيّة الرنّانة. توقّف المدير وأمرها بفظاظة أن تجانبنا. أطاعته جاكلين، فتابعنا نحن الأربعة المسير في صمت، ومشينا عبر متاهة من الممرّات الموحشة حتّى وصلنا في النهاية إلى الباب الأخير.

دخلنا غرفة مربّعة الشكل فيها مكتب ملاصق لصندوق حديديّ، وأربع كراسٍ حول طاولة منخفضة عليها كرّاسات للدعاية السياسيّة، وفيها أيضًا إبريق ماء لغسل الأيدي وسرير ملتصق بالحائط. وعلى الحائط، فوق السرير، أُلصِقت صورة للسكرتير العام للحزب الشيوعيّ في ألمانيا الشرقيّة، قُصّت من إحدى المجلّات. جلس المدير إلى المكتب وفي يده جوازات سفرنا، وجلسنا نحن على الكراسي. بدأت أتذكّر القرى الكولومبيّة وقاعات محاكمها الريفيّة التي لا تفيد شيئًا في النهار، لكنّها في الليل تفيد المواعيد الغراميّة التي تُرتَّب في صالة السينما. أمّا جاكلين فقد بدت مندهشة ممّا ترى.

ليس بوسعي أن أحدّد كم من الوقت بقينا في تلك الغرفة. فقد تعيّن علينا أن نردّ، واحدًا تلو الآخر، على الاستجواب نفسه الذي صاغه بالألمانيّة هذا الموظّف الأكثر حماقة من أيّ موظّف آخر يمكن لي أن أتذكّره. في البداية لم يبدِ نحونا غير الفظاظة، فأوضحنا له بالوسائل كلّها أنّنا لسنا جواسيس للرأسماليّة، وأنّنا لا نتطلّع إلى شيء غير القيام بجولة سياحيّة في ألمانيا الشرقيّة. راودني انطباع

أنّه يفكّر بألمانيّة شبيهة بدرع صلب، ترتدّ عنه كلماتنا الإنكليزيّة والفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة، وكذلك إيماءاتنا الأكثر وضوحًا في التعبير. أغاظه هذا الحوار الشبيه بحوار المجانين، فاستشاط غضبًا منّا ثمّ تفاقم غضبه من فشله في أداء مهمّته، إذ اضطرّ لتمزيق التأشيرات ثلاث مرّات بعد أن تلطّخت بالحبر نتيجة المحو والتعديل.

وحينما جاء دور جاكلين في الاستجواب خفّ توتّر الأجواء لأنّ المدير أبدى في نهاية المطاف اهتمامه بملامحها الهندو-صينيّة. أوضح لنا بالإشارة أنّ بوسعها في هذه الرحلة أن «تجد لها عشيقًا ذا شعر أشقر وعينين زرقاوين»، وليثبت إعجابه الشخصيّ بها منحها تأشيرة دخول مجّانيّة. وحينما همَمْنا بمغادرة المكتب، كنّا في منتهى السخط والإعياء، لكنّا اضطُررنا أيضًا لإضاعة نصف ساعة أخرى من الوقت لأنّ المدير حاول أن يوضح لنا -بالإشارة وبشذرات من الألمانيّة والإنكليزيّة- جملة تَمكنّا بعد لأي من فهمها حرفيًّا: «سوف تسطع شمس الحرّيّة على كولومبيا».

كانت جاكلين أكثرنا يقظة فتولّت قيادة السيّارة، وجلس فرانكو إلى جانبها كي لا تغفو على المقود. قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فتمدّدتُ على المقعد الخلفيّ وغفوت على ضجيج العجلات وهي تنزلق بنعومة على الطريق السريعة، الملساء، البرّاقة، المقفرة تمامًا. وحينما استيقظت، كان الفجر قد بدأ يطلع، فرأيت مركبات ضخمة تسير ببطء، في الاتّجاه المعاكس لاتّجاهنا، ومصابيحها الأماميّة مزوّدة بواقيات توجّه نحو الأسفل نورها الذي

يصعب تبيّنه مع خيوط الفجر الأولى. لم أستطع تحديد ماهيّة القافلة اللامتناهية.

– ما هذا؟ سألتُ.

– لا أعرف. إنّ هذه المركبات تمرّ منذ أوّل الليل، قالت جاكلين وهي متوتّرة وراء المقود.

ولم ندرك أنّها شاحنات عسكريّة روسيّة إلّا ابتداءً من الساعة الرابعة، عندما طلع الصباح الصيفيّ المشرق على السهول الشاسعة الجرداء. تلك المركبات تمرّ بفاصل مقداره نصف ساعة، في مواكب من عشرين إلى ثلاثين شاحنة، تتبعها بعض السيّارات الروسيّة الصنع التي لا تحمل أرقام لوحات. وفي بعض الشاحنات، كان يركب جنود عزّل، لكنّ أغلبها مغطّى بقماش كتيم ذي لون عسكريّ.

كان الإحساس بالعزلة على الطرقات السريعة هنا ملموسًا أكثر منه في ألمانيا الغربيّة حيث يتعيّن على المرء أن يجاهد ليشقّ طريقه بين السيّارات الأميركيّة ذات الطراز الحديث. على بعد كيلومترات قليلة من هايدلبرغ يقع مقرّ قيادة الجيش الأميركيّ وفيه مقبرة للسيّارات تمتدّ على ما يزيد عن الثلاثة آلاف متر على جانبي الطريق. أمّا في ألمانيا الشرقيّة فيراود المرء انطباع أنّه أخطأ في وجهته وراح يسير على طريق لا تؤدّي إلى أيّ مكان. وليس هناك ما يخفّف من الإحساس بالعزلة على هذه الطرقات غير الملصقات الضخمة على الجانبين؛ فبدلًا من الإعلانات التجاريّة المنتشرة على الطرقات في الغرب، ترى هنا رسوم كاريكاتوريّة عملاقة

تجسّد المستشار الغربيّ كونراد أديناور في هيئة أخطبوط يعتصر البروليتاريا بمجسّاته عصرًا. وما من شكل من أشكال الاستعارات الفنيّة التي تفتّق عنها خيال الشيوعيّة في نقد الغرب ومواجهته، إلّا وحُلَّ أمره هنا ببساطة بمعونة فرشاة ضخمة وبعض الألوان الصارخة، وذلك دائمًا بتصوير المستشار أديناور ممثِّلًا وحيدًا عن الرأسماليّة ومنفِّذًا مطلقًا لفظاعاتها.

لقد وقع احتكاكنا الأوّل ببروليتاريا المعسكر الشرقيّ بغتة، فعند الساعة الثامنة صباحًا رأينا على جانب الطريق محطّة وقود صغيرة، وبعدها بقليل رأينا مطعمًا لا تزال لافتته مضاءة بأضواء النيون وقد كُتب عليها: «ميتروبا»، وهي اللافتة المميّزة لمطاعم الدولة. تزوَّد فرانكو بالوقود ثمّ تفقّدنا ما بحوزتنا من ماركات ألمانيّة وعزمنا على المغامرة والدخول في مشهد جديد من مشاهد الجنون كي نتناول فطورنا.

لن أنسى ما حييت دخولنا إلى هذا المطعم، إذ سبَّب لي صدمةً مباغتةً لم أكن متحسّبًا لها. ذات مرّة وجدت نفسي، من دون قصد، في أحد أزقّة نابولي، وكان ذلك في اللحظة التي يُخرِج فيها أهل الحيّ من نافذة الطابق الثالث تابوتًا مربوطًا بالحبال، بينما الجيران مجتمعون أسفل البناية -في الزقاق الذي يعجّ بالأطفال والشحّاذين والعربات المليئة بلحوم الخنازير المقطّعة- يحاولون تهدئة زوجة الميت وهي تمزّق ثيابها وتشدّ شعرها وتتمرّغ على الأرض مطلقة العويل. كان انطباعي في المطعم مختلفًا عنه في نابولي، لكنّه مماثل له في الحدّة: فأنا لم أرَ في حياتي كلّها هذا المقدار من

البؤس الذي تجمّع في فعل بسيط من أبسط الأفعال اليوميّة للبشر، ألا وهو تناول الفطور. فحينما دخلنا رأينا ما يقرب من مائة رجل وامرأة، وجوههم ذاهلة وملابسهم رثّة، يلتهمون بنهَم كميّات من البطاطا واللحم والبيض المقليّ، وسط همهمة صمّاءً، مبهمة، في صالة تعبق بالدخان.

لقد وضع دخولنا حدًّا لهمهماتهم وعزوتُ صمتهم ذاك إلى منظر جاكلين الغريب عليهم، فأنا عادة أكاد لا أنتبه إلى منظر شاربيّ وسترتي الحمراء المخطّطة بالأسود. اخترقْنا هذا الصمت ونحن نحسّ على أجسادنا بوخز مائة نظرة منفلتة من العيون، وخطونا نحو الطاولة الوحيدة الخالية من الزبائن، وكانت ملاصقة لجهاز تشغيل أسطوانات موسيقيّة، ألوانه باهتة ويعمل بنصف مارك مقابل المقطوعة أو الأغنية. لم تكن لائحة الأغاني غريبة عنّا: أغاني المامبوس الكوبيّة لبيريس برادو وأغاني البوليرو للثلاثيّ لوس بانتشوس، ثمّ أسطوانات الجاز.

جاءت إلينا نادلة ترتدي ملابس بيضاء فقدّمت لنا الخبز والقهوة المطعّمة بطعم حادّ من الهندباء، وكانت القهوة بوضوح -بالنسبة لمتوسّط الدخل في فرنسا- أرخص بكثير منها في باريس، وأرخص بكثير من أيّ بلد آخر في أوروبّا، وقد تبيّن لنا لاحقًا أنّ ذلك بسبب الرواتب في ألمانيا الشرقيّة. وعندما حانت لحظة دفع الحساب، لم تكفِ الماركات الشرقيّة التي بحوزتنا، إذ كانت أقلّ من المطلوب بمارك واحد، فقبلت النادلة بدلًا منه ماركًا غربيًّا واحدًا، ثمّ جعلتنا نوقّع ورقة عاديّة إثباتًا بعمليّة التصريف.

أخذ فرانكو يستطلع وجوه الزبائن وعلى محيّاه ملامح الإحباط. هناك لحظات من التأثّر لا يمكن استعادتها وتفسيرها وقد تكون تلك واحدةٌ منها. فهؤلاء الناس كانوا يتناولون فطورًا يعادل وجبة غداء كاملة في بقيّة بلدان أوروبّا الغربيّة وبسعر أقلّ منها بكثير، لكنّهم تالفو الروح، معذّبون ولا يتلذّذون أبدًا بطبقهم الكبير، المليء باللحم والبيض المقليّ.

ارتشف فرانكو آخر رشفة من قهوته ثمّ تلمّس جيوبه بحثًا عن السجائر، لكنّه لم يجدها، فنهض ووقف وقوفًا لفت أنظار الجميع، ثمّ توجّه إلى أقرب مجموعة إلينا، وطلب منها -بالإشارة- سيجارة. اندفع زبائن الطاولات المجاورة نحونا وهم يقدّمون لنا، بكرم وسخاء لافتَيْن، أعواد الثقاب والسجائر المنفردة وعلب السجائر المختومة، وكدت لا ألحظ ذلك لسرعتهم. بعد لحظات كشفت جاكلين عمّا يدور في خاطرها، وهي تهوي منهكة على المقعد الخلفيّ من السيّارة التي تطير بنا باتّجاه برلين، إذ علّقت التعليق الوحيد الذي بدا لي مناسبًا في تلك اللحظة:

- بشرٌ مساكين.

-2-

برلين مكانٌ للهذيان

لم يتبقّ في برلين الغربيّة أثر من آثار أوروبّا إلّا كاتدرائيّتها المحترقة التي قصمت برجَها القنابل. فالأميركان مثل الأطفال يرتعبون من الخفافيش، ذلك أنّهم بدلًا من ترميم بقايا الجدران القليلة التي ما برحت قائمة بعد الحرب، والاستفادة منها في إنشاء مدينة غنيّة بالآثار، اعتمدوا معيارًا أكثر صحّة ونظافة، ومربحًا أكثر من الناحية التجاريّة: مَحْو كلّ شيء والابتداء بصفحة جديدة.

لقد أحسست بالخواء أثناء اطّلاعي الميدانيّ الأوّل على تلك العمليّة الهائلة التي قامت بها الرأسماليّة في عقر دار الاشتراكيّة. فعلى طول الصباح رحنا نبحث عن المدينة ونحن نجول في أرجائها من دون أن نعثر عليها. ليس فيها أيّ شيء من التناسق ولا يُعرف رأسها من قدميها، وفضلًا عن ذلك فإنها تفتقر إلى مركز رئيسيّ يحسّ المرء فيه بمتعة الوصول إلى غايته.

إنّ المساحات الواسعة التي لم يُعَدْ بناؤها ظلّت حدائق مؤقّتة، وهناك شوارع تبدو كأنّها نُقلت بأكملها من نيويورك وزُرعت في الأرض زرعًا. وفي بعض القطاعات يسابق النهمُ التجاريّ النهمَ التقنيّ، إذ استقرّت فيها شركات كبيرة قبل عام من إزالة السقالات. وإلى جانب مبنى عجيب الشكل من مباني العمارة الحديثة

-ناطحة سحاب تبدو كأنّها نافذة زجاجيّة وحيدة- هناك مجمّع ضخم من المباني الخشبيّة التي يتناول البنّاؤون فيها طعام الغداء. وفوق المنصّات الخشبيّة يتدافع حشد محموم من العمّال، وسط هدير المثاقب ورائحة الإسفلت المغليّ والروافع التي تطوف فوق الهياكل المعدنيّة وإعلانات الكوكا كولا العملاقة. من ذلك العمل الجراحيّ الدامي، ينبثق شيء ما مناقض تمامًا لأوروبّا وهويّتها، يتمثّل في مدينة برّاقة، معقّمة، حيث عيب الأشياء أنّها تبدو فائقة الجدّة.

قيل إنّ هذه التجربة المعماريّة هي الأهمّ في أوروبّا بأسرها. ولا شكّ في ذلك، فبرلين الغربيّة من وجهة النظر التقنيّة ليست مدينة بل مختبرٌ، والولايات المتّحدة الأميركيّة تتولّى فيه دور المعلّم. ليس لديّ معطيات عن كمّ الدولارات التي استُثمِرت في إعادة الإعمار ولا عن الطريقة التي استُثمِرت بها، لكنّ النتائج ماثلة للعيان، أمامنا.

أعتقد بتواضع أنّ برلين الغربيّة مدينة مزيَّفة. في الصيف يغزوها السيّاح الأميركيّون، فيلقون نظرة على العالم الاشتراكيّ وينتهزون الفرصة كي يشتروا من أسواقها موادّ مستوردة من الولايات المتّحدة، أسعارها أرخص من نيويورك. لا يستطيع المرء أن يستوعب كيف يمكن لفندق يضاهي في جودته أحسن فنادق الولايات المتّحدة، ومجهّز بغرف حديثة وتلفزيونات وحمّامات وهواتف، أن يستمرّ في الخدمة مقابل أربع ماركات للّيلة الواحدة، أي مقابل دولار واحد فقط. وسط ازدحام المرور في المدينة لا تُرى فيها أيّ سيّارة إلّا وتكون من أحدث طراز. إنّ إعلانات

المحلّات التجاريّة والدعايات ولوائح الطعام في المطاعم، جميعها مكتوبة باللغة الإنكليزيّة. على أراضي ألمانيا الغربيّة تعمل خمس محطّات إذاعيّة لم تبثّ يومًا كلمة واحدة بالألمانيّة. وإذا ما لاحظ المرء هذا كلّه وزاد عليه أنّ برلين الغربيّة ليست سوى جزيرة صغيرة مزروعة وراء الستار الحديديّ، وليست لها علاقات تجاريّة مع الخارج حتّى دائرة قطرها خمسمائة كيلومتر، وهي ليست مركزًا صناعيًّا مهمًّا، وأنّها تتبادل كلّ شيء مع العالم الغربيّ بالطائرات التي تحطّ وتقلع، بمعدّل طائرة كلّ دقيقتين، من مطار يقع في وسطها، فإنّ المرء لا يجد مفرًّا من الاعتقاد بأنّها ليست إلّا وكالة ضخمة للدعاية الرأسماليّة. إنّ نهضتها لا تتناسب وحقيقة واقعها الاقتصاديّ، ففي كلّ ركن من أركانها يُلمح القصد المدروس في تقديم مظهر من مظاهر الازدهار المُختلَق، وتُرى الغاية البيّنة في إبهار ألمانيا الشرقيّة التي تتأمّل هذا المشهد من كوّة ضيّقة، فاغرة الفم.

إنّ الحدّ الرسميّ الفاصل بين شطري برلين هو بوّابة براندنبورغ حيث يخفق العلم الأحمر بمنجله ومطرقته. وعلى مسافة خمسين مترًا من البوّابة نُصِبَتْ لافتة تحذيريّة تقول: «انتبه، أنت على وشك الدخول في المجال السوفياتيّ». وصلنا أمام تلك اللافتة عند المساء بعد أن زرنا برلين الغربيّة وتعرّفنا عليها، فخفّف فرانكو من سرعته بعفويّة تامّة. أشار لنا شرطيّ روسيّ أن نتوقّف، فتفحّص السيّارة بنظرة روتينيّة تمامًا ثمّ أمرنا أن نمضي قدمًا. إنّ العبور إلى الجانب الشرقيّ سهل ويسير مثل انتظار اللون الأخضر على شارة

المرور، لكنّ الاختلاف هنا ملحوظ، إنه صادم وحادّ. دخلنا مباشرة في جادّة «أونتَر دِن لينڈِن»، وهي الجادّة العظيمة التي يعني اسمها «تحت أشجار الزيزفون»، وكانت تُعتبر فيما مضى من أبهى جادّات العالم. أمّا الآن فلم يعد ماثلًا على جانبيها غير بقايا أعمدة غطّاها الهباب، إضافة إلى بوّابات تطلّ على الفراغ وأساسات صدّعتها الطحالب والأعشاب. هنا، لم يُعَدْ إعمار أيّ شيء، ولا حتّى متر مربّع واحد.

وبمقدار ما يتقدّم المرء في برلين الشرقيّة، يدرك أنّ الاختلاف بين الشطرين أعمق من الاختلاف بين نظامين، وأنّ هناك عقليّتَيْن متعارضتَيْن تحكمُ كلٌّ منهما جانبًا من جانبي بوّابة براندنبورغ. إنّ المجمّعات السكنيّة القليلة التي ما برحت صامدة في القطاع الشرقيّ لا تزال آثار المدافع بادية عليها. والمحلّات التجاريّة هنا قذرة، ومنكفئة خلف واجهات فيها فجوات أحدثها القصف، فضلًا عن أنّ الموادّ المعروضة فيها غير جذّابة ونوعيّتها متواضعة. هناك شوارع كاملة مبانيها مقوّضة ولم يبقَ من طوابقها العليا غير الهياكل، والناس لا يزالون يعيشون في طوابقها السفليّة، مكتظّين فوق بعضهم، بلا مرافق صحيّة ولا مياه جارية، ينشرون الغسيل على الشبابيك حتّى ينشف، كما في أحياء نابولي الفقيرة. وفي الليل، بدلًا من الإعلانات التي تغمر برلين الغربيّة بالألوان، لا يسطع في الجانب الشرقي شيء غير النجمة الحمراء. وميزة هذه المدينة المعتمة، المكفهرّة، أنّها حقًّا تتناسب والواقع الاقتصاديّ للبلاد، باستثناء وحيد هو جادّة ستالين.

يتمثّل الردّ الاشتراكيّ على نهضة برلين الغربيّة في المهزلة الهائلة المتجسّدة في جادّة ستالين. إنّه مشروع يتجاوز حدود المعقول، سواء من حيث الحجم والأبعاد، أو من حيث الذوق الفظّ فيه، وهو مزيج متنافر من كلّ الأساليب، لا ناظم له إلّا المعايير المعماريّة المعتمدة في موسكو. إنّ جادّة ستالين هي مدى واسع، مليء بالمساكن التي تشبه مساكن أهل الريف الأغنياء بالمال، والفقراء بذوقهم. لكنّها مكدّسة تكديسًا واحدًا فوق الآخر، وفيها أطنان لا حصر لها من الرخام والتيجان المزخرفة بالزهور والحيوانات والأقنعة الحجريّة، إضافة إلى البوّابات السقيمة، المزيّنة بتماثيل إغريقيّة مزيّفة، صُنِعت من الباطون المسلّح.

إنّ معيار من صمّموا هذا العمل المريع هو معيار بدائيّ. فإذا كانت جادّة «أونتَر دِن لينڈِن» مفخرة هتلر، فإنّ مفخرة برلين الاشتراكيّة هي جادّة ستالين، لتفوّقها في الطول والعرض والوزن، بل وفي البشاعة أيضًا. في برلين الغربيّة تُبنى مدينة لأناس أغنياء، هم أنفسهم الذين كانوا يرتادون جادّة «أونتَر دِن لينڈِن» قبل الحرب. أمّا جادّة ستالين فقد شُيّدت لتكون مقرًّا سكنيًّا لأحد عشر ألف عامل، وفيها مطاعم وصالات سينما وملاهٍ ومسارح، هي بمتناول الجميع. وكلّ مكان من هذه الأمكنة هو مثال صارخ على الإسراف في التكلّف والحذلقة: أثاث منجّد بقماش أرجوانيّ وثير، وسجّاد أخضر مزيّن بحواشٍ ذهبيّة اللون، فضلًا عن المرايا والرخام المزروع في كلّ ركن وزاوية، وحتّى في المراحيض. ما من عامل في أيّ بقعة من بقاع الأرض يعيش عيشة أفضل ممّن

يعيشون في جادّة ستالين، ولقاء أسعار زهيدة. ولكنْ، مقابل هؤلاء العمّال ذوي الامتيازات، الذين يعيشون هنا والبالغ عددهم أحد عشر ألفًا، هناك حشود هائلة من البشر تعيش مكدّسة فوق بعضها في مساكن بائسة، وتعتقد -بل وتقول صراحة- إنّ ما أُنفِق على التماثيل والرخام والأثاث والمرايا، كان كفيلًا بإعادة إعمار المدينة إعمارًا لائقًا.

هناك من قدّر أنّ برلين لن تصمد أكثر من عشرين دقيقة في حال اندلعت حرب جديدة. وإن لم تندلع الحرب بعد خمسين عامًا أو بعد مائة، وساد أحد المعسكرين على الآخر، فإنّ شطري المدينة سوف يندمجان في مدينة واحدة، لتصبح معرضًا تجاريًّا هائلًا يُقام من العيّنات المجّانيّة للنظامَيْن.

إنّ برلين اليوم مكان للهذيان وليس ذلك بسبب مظهرها الخارجيّ وحسب. ومن أجل التعرّف على حياتها الخاصّة والحميمة ورؤية وجهها الخفيّ والكشف عن تفاصيل بنيتها العميقة لا بدّ من النزول إلى عالم المترو. لقد أعطى هتلر الأوامر بإغراقه بالماء، قبل ساعة من انتحاره والروس على أبواب منزله، وذلك كي يخرج الناس الذين احتموا فيه ويقاتلوا في الشوارع، لذا فهو قذر ورطب حتّى الآن، لكنّه اليوم الوسيلة التي يستخدمها عامّة البرلينيّين -الفقراء على كلا الجانبين- للحصول على مكاسب من الصراع الخفيّ، الدائر بين النظامَيْن في الشوارع. هناك أناس يعملون في أحد شطرَي المدينة ويعيشون في الشطر الآخر، فيرتّبون أمورهم بأحسن طريقة ممكنة للاستفادة من أفضل ما يقدّمه كلا النظامين.

وفي بعض المواضع من المدينة يكفي لتحقيق ذلك أن يعبر المرء الشارع؛ فهذا الرصيف اشتراكيّ والآخر، المقابل له، رأسماليّ. على الرصيف الأوّل، المنازل والمحلّات التجاريّة والمطاعم ملك للدولة، أمّا على الرصيف الثاني فهي ملكيّة خاصّة، تعود للأفراد. نظريًّا، من يقطن على أحد الرصيفين ويعبر الشارع ليشتري زوجًا من الأحذية من الرصيف المقابل، يكون قد ارتكب ثلاث جنح على الأقلّ، وذلك على كلا الجانبين.

لكنّ جميع الأحكام في برلين شكليّة، نظريّة. فصحيح أنّه هناك اتّفاقات واضحة تمامًا لمنع المضاربة وهروب رؤوس الأموال وإفساد الأنظمة المعمول بها؛ ومبدئيًّا لا يمكن للمرء أن ينفق على أحد الجانبين ما يكسبه من الجانب الآخر، وأيّ عمليّة تجاريّة تُبرم، لا بدّ وأن تُرفق بتبرير لمصدر الأموال التي تُبرم بها، لكنّ السلطات تتغاضى عن ذلك عمليًّا، فهي لا تهتم إلّا بالحفاظ على المظاهر والشكليّات. بوسع سكّان برلين أن يعبروا من جانب إلى آخر مشيًا على الأقدام في الشارع، لكنّهم يحترمون قواعد اللعبة أيضًا ويعبرون بالمترو حيث لا يخفى على أحد أنّهم ذاهبون إلى الجانب الآخر، وأنّ السلطات تراهم وتتجاهلهم.

إنّ الدليل الأكثر سطوعًا على هذه المعركة الشرسة التي تدور رحاها بين النظامين عاينّاه حينما اشترينا ماركات شرقيّة من أحد بنوك برلين الغربيّة حيث صرفنا الدولار الواحد بسبعة عشر ماركًا شرقيًّا. اعتقد فرانكو صادقًا أنّ الموظّف قد أخطأ، فسعر الصرف الرسميّ ماركان شرقيّان مقابل الدولار الواحد. لكنّ الموظّف

أوضح لنا أنّ هذا السعر لا يُؤخذ في الاعتبار في برلين الغربيّة، وأنّ البنوك فيها -على مرأى من جميع الناس وفي عملية قانونيّة تمامًا- تصرف الدولار بسبعة عشر ماركًا شرقيًّا، أي ما يقارب ثمانية أضعاف السعر الرسميّ. نظريًّا، كانت عمليّة غير مجدية لأنّنا لن نستطيع شراء أيّ شيء في ألمانيا الشرقيّة من دون أن نقدّم الدليل على أنّ تصريف الدولارات جرى في البلد نفسه. لكنّ ذلك لم يكن إلّا كلام نظريّ، فبعشرين دولارًا بدّلناها في برلين الغربيّة تجوّلنا في ألمانيا الشرقيّة بالطول والعرض. وبإجراء حساب بسيط، تبيّن لنا أنّ غرفة في أحسن الفنادق، بحمّامها ومذياعها وهاتفها وبالفطور الذي يأتي إلى السرير، كلّفتنا 75 سنتافًا كولومبيًّا، وأنّ غداء كاملًا في أحسن المطاعم كلّفنا 20 سنتافًا بما في ذلك الخدمة والتماثيل والمرايا وموسيقى شتراوس.

في هذه المدينة لا شيء يوحي بالثقة أبدًا، ولا أحد يعرف حقّ المعرفة عَلامَ يعتمد، فأبسط أفعال الحياة اليوميّة تتطلّب شيئًا من الشطارة وخفّة اليد؛ ومن يعيشون فيها ولا يمتلكون مفاتيحها السرّيّة، يعيشون حالة من القلق المستمرّ ويشعرون بأنّهم جالسون على برميل من البارود. يبدو أن لا أحد باله مرتاح هنا، فالخبر الذي يُفسّر في باريس على أنّه حماقة جديدة من حماقات المسؤولين، يدوّي في برلين دويّ المدافع. وأيّ إطار من إطارات السيّارات التي تنفجر هنا، قد يثير الذعر بين الناس.

أمّا لايبزغ فلها حكاية أخرى. فبعد أربع ساعات من السفر بالسيّارة على طريق متعرّجة تحفّ بها أشجار الحور، وصلنا إلى

المدينة ودخلناها عبر شارع ضيّق ومقفر، يكاد لا يتّسع للخطّ الحديديّ الذي يسير عليه الترام. كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلًا وقد بدأت السماء تمطر. ذكّرتني هنا جدران الطوب الخالية من النوافذ، وكذلك مصابيح الإنارة العامّة الحزينة، بالفجر في بوغوتا وهو يطلع على أحيائها الجنوبيّة.

كانت المدينة في مركزها تنعم بهدوء مريب، فإنارتها شحيحة مثل إنارة ضواحيها. وليس فيها ما يدلّ على الحياة غير أضواء النيون المنبعثة من لافتات بارات الدولة التي تحمل علامة H.O، ولا يبدو فيها غير عدد قليل من الزبائن المدنيّين وبعض العسكر. وبعد أن بحثنا عبثًا عن مطعم مفتوح من مطاعم الدولة التي تحمل اسم «ميتروبا»، قرّرنا أن نذهب إلى الفندق. لم يكن عمّال الاستقبال يتقنون غير الألمانيّة والروسيّة، وكان الفندق الذي اخترناه أحسن فنادق لايبزغ، وقد صُمّم ديكوره وفقًا للمعايير نفسها التي صُمّمت بها جادّة ستالين. على طاولة الاستقبال، ما من جريدة من جرائد الغرب الشيوعيّة التي تصل جوًّا إلّا وكانت معروضة بوضوح. وفي البار المُضاء بالثريّات الزجاجيّة الثقيلة والمبهرجة، كانت إحدى الفرق الموسيقيّة المكوّنة من بعض عازفي الكمان تعزف لحنًا من ألحان الفالس المثيرة للشجن، والزبائن يشربون الشمبانيا غير المبرّدة بصمت وسكون في جوّ يتميّز بالكآبة. أمّا النساء اللواتي دخلن خريف العمر وتلوّنت وجوههنّ بمساحيق التجميل البنفسجيّة، فقد اعتمرن قبّعات تقادمت موضتها، وكانت الموسيقى تطفو متهادية في الأجواء التي تضمَّخت بعطرهنّ الثقيل.

في إحدى زوايا الصالة، جلست ثلّة من الرجال والنساء يتناولون الشاي مع البسكويت، وقد ارتدوا زيّ الصيد، فبدوا كاملي الأناقة بالسترات الطويلة الحمراء والقبّعات السود وجزمات ركوب الخيل. ولم يكن ينقص تلك الثلّة غير الكلاب الضخمة، البيضاء، المرقّطة بالأسود، حتّى تبدو وكأنّها لوحة من لوحات الطباعة الحجريّة، المستقاة من أصفى أجواء الأرستقراطيّة الإنكليزيّة وأنقاها. أمّا نحن، فبالجينز الأزرق والقمصان العاديّة وغبار الطريق الذي لم نمسحه عنّا بعد، كنّا العلامة الوحيدة التي تدلّ على الديمقراطيّة الشعبيّة.

كنّا قد أتينا إلى هنا كي نتفرّج، لكننا بعد أربع وعشرين ساعة في لايبزغ لم يعد همّنا أن نتفرّج وحسب، بل أن نستوعب ما نراه ونفهمه. منذ خمسة عشر يومًا مررنا في هايدلبرغ -كما لو أنّ ذلك من مصادفات الأقدار-، وهي مدينة طلّابيّة في ألمانيا الغربيّة، تدهش الزائر أكثر من أيّ مدينة أخرى في أوروبّا، بصفاء أجوائها وروح التفاؤل والرجاء التي تعمّ فيها. إن لايبزغ مدينة طلابيّة أيضًا، لكنّها مدينة حزينة، وعربات الترام فيها قديمة ومكتظّة بالبشر المكتئبين، الذين يرتدون ملابس رثّة. لا أعتقد أنّ في المدينة كلّها أكثر من عشرين سيّارة مقابل نصف مليون نسمة تسكن فيها. في نظرنا، لم يكن أمرًا معقولًا أن يبدو شعب ألمانيا الشرقيّة شعبًا حزينًا، بل أكثر الشعوب التي رأيتها في حياتي حزنًا، وذلك بعد أن استولى على السلطة ووسائل الإنتاج والتجارة والبنوك والاتّصالات والمواصلات.

في أيام الآحاد تتدفّق الحشود إلى مدن الملاهي حيث تُعزف الألحان الراقصة ويتناول الناس المشروبات الغازيّة، فيمضون في نهاية المطاف أمسيات مملّة مقابل سعر زهيد جدًّا. لا مكان لموطئ قدم في حلبات الرقص، إلّا أنّ الأزواج المكتظّين فيها يبدون كما لو كانوا جمادًا وهم يرقصون وعلى وجوههم الكدَر نفسه الموسوم على وجوه الحشود المكتظّة في عربات الترام. الخدمة بطيئة في جميع المرافق وعلى المرء أن يصطفّ في الدور وينتظر نصف ساعة لشراء الخبز أو بطاقات القطار أو السينما. في إحدى مدن الملاهي، حيث تعيّن علينا أن نشقّ طريقنا بالأذرع بين جموع العشّاق والأزواج الذين يصطحبون أولادهم معهم، أنفقنا ساعتين حتّى تمكّنّا من شراء الليموناده. إنّ هذه الإدارة التي تتميّز بالجمود وتفتقر إلى الفعاليّة، هي أقرب مثال إلى الفوضى.

لم يكن بوسعنا أن نستوعب ما نراه، فلقد كنّا كمن ذهب إلى السينما لقتل الوقت، فألفى نفسه يشاهد فيلمًا من عمل المجانين، لا يُعرف رأسه من قدميه، وليس لحبكته من غاية غير إثارة حيرة المشاهدين. ذلك أنّ الحيرة هي أبسط ما يمكن أن يصيب المرء عندما يبدو كلّ شيء، في العالم الجديد وفي حمى الثورة، باليًا، متهالكًا، هرمًا.

كنّا أنا وفرانكو قد نسينا جاكلين، إذ سارت وراءنا طول النهار، متخلّفة عنّا، وهي تنظر بلا اكتراث إلى الواجهات المغبّرة حيث تُعرض سلعٌ وموادُّ رديئة بأسعار بخسة. عند الغداء ذكّرتنا بوجودها حينما احتجّت على عدم وجود الكوكا كولا على المائدة. وفي

المساء طفح الكيل بها ونحن في مطعم المحطّة، وذلك بعد أن تأخّر مجيء العشاء ساعة، وضاقت أنفاسنا من الدخان والروائح وأرهقتنا الفرقة بموسيقاها التي تدخل في مسامع الزبائن من جهة، لتخرج من الجهة الأخرى، فعلّقت قائلة:

– هذا بلد شنيع!

كان رأي فرانكو من رأيها تمامًا، فخرج من الفندق صباحَ اليوم التالي، مبكّرًا، يبحث عن تفسيرات لذلك بعد أن تذكّر أنّ جامعة ماركس–لينين في لايبزغ حيث يَدْرسُ الماركسيّةَ شبّان وصبايا أتوا من أصقاع الأرض كافّة. إنّها مكان للسّكينة والتأمّل، توارت مبانيه بين الأشجار، فبدا بذلك أشبه بمدرسة إكليريكيّة، كاثوليكيّة. وهناك حالفني الحظّ وسُررت بأن التقيت بمجموعة من الطلّاب القادمين من أميركا الجنوبيّة. وبفضلهم تأكّدت ملاحظاتنا وترسّخت على أسس ملموسة، فقد كان من الممكن أن تظلّ ذاتيّة وغير منصفة. والفضل في ذلك أيضًا يعود بالطبع إلى سهرتنا المهولة، التي أحييناها تلك الليلة في منزل الهير فولف.

-3-

المجرّدون من المِلكيّة
يجتمعون ويبثّون أحزانهم...

في ظروف لم تكن في الحسبان، هبط علينا الهير هرمان فولف من السماء. بعد الغداء ذهبت جاكلين إلى الفندق، أمّا أنا وفرانكو فتابعنا يومنا مع طالب من تشيلي سوف أسمّيه منذ الآن فصاعدًا سِرخيو، مع الإشارة إلى أنّ هذا الاسم ليس اسمه الحقيقيّ. كان رجلًا في الثانية والثلاثين من العمر، وهو محام في بلده، حصل على منحة من ألمانيا الشرقيّة كي يتخصّص في الاقتصاد السياسيّ. منذ سنتين غادر تشيلي سرًّا وأتى إلى مدينة لايبزغ، ولا يزال مقيمًا فيها.

عند الساعة الحادية عشرة ليلًا استسلمت المدينة للنوم، فأخذَنا سِرخيو إلى أحد ملاهي الدولة التي تحمل اسم «فيمينا»، وهو مكان التسلية الوحيد الذي يظلّ مفتوحًا حتّى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. اعتقدت أنّني رأيت هذا المكان من قبل في مدينة ما، إلى أن ذكّرني فرانكو أنّني لم أره قطّ، بل إنّني قرأت عنه في إحدى الروايات الوجوديّة. ففيه سطعت الإنارة المخفيّة، بلونها البنفسجيّ النازل على الجدران السوداء، وزادت من حدّة الجوّ المشبّع بألوان

الطيف، فأبرزت الزخارفَ الفائقة الواقعيّة الملصقة عليها. في عمق الصالة التي أُثِّثت بطاولات كلّ منها يتّسع لأربعة أشخاص، أنشئت حلبة الرقص الدائريّة، تليها منصّة الفرقة الموسيقيّة، وقد ازدانت خلفيّتها بمشهد استوائيّ مصنوع من الكرتون المقوّى. كانت الفرقة تعزف لحنًا من ألحان المامبو الكوبيّ.

جلسنا إلى طاولة قرب الحلبة، فجاء إلينا نادل يرتدي معطف الخدم، تفاهم معه سِرخيو بالألمانيّة، وكان متكلّفًا، غريب الأطوار. كان الجوّ ملائمًا تمامًا لتعاطي الأفيون لكننا اكتفينا بطلب كؤوس من الكونياك. في غضون ذلك نهض فرانكو وعَبَر الصالة الداخليّة، بحثًا عن المراحيض، وعندما عاد إلى الطاولة كان سِرخيو يرقص رقصة السوينغ مع صبيّة من الطاولة المجاورة. بدأت أنا أحسّ بالملل.

– قم واذهب إلى المراحيض، فهناك ما هو مثير للدهشة، قال فرانكو.

عبَرت الصالة الداخليّة فوجدت أمامي ثلاثة أبواب كُتِب عليها:W.C. كان الباب الأوسط بابَ المرحاض المخصّص لقضاء الحاجات الكبيرة، وقد رُكّب عليه ما أراد لي فرانكو أن أراه: عدّاد موصول بالقفل، وقبالته امرأة جالسة إلى طاولة، تنتظر خروج الزبون. أشار العدّاد إلى 30 *بفينيغًا*، ولمّا خرج الزبون، وضع المبلغ في الصحن الصغير الموجود على الطاولة، وترك بقشيشًا للمرأة.

ولدى عودتي لاحظت أنّ الصالة الداخليّة تمتدّ نحو اليمين بخليطٍ عجيبٍ من متاهات الكوميديا الإلهيّة وخيال سلفادور

دالي: رجال ونساء مرميّون على الأرض من السُّكْر، يمثّلون مشاهد الحبّ تمثيلًا رتيبًا يفتقر إلى الخيال. لقد كانوا شبانًا. لم أرَ قطّ شيئًا كهذا في حيّ «سان جيرمان دو بري» الباريسيّ حيث الوجوديّة حيلة تُركّب كلّ صيف لعرضها على السيّاح. كما أعتقد أن هناك أصالة أكثر في بارات شارع «فيا مارغوتا» في روما، وليس فيها هذا المقدار من المرارة. لم يكن هذا المكان ماخورًا، لأنّ الدعارة محظورة في الدول الاشتراكيّة، والقانون يعاقب مرتكبيها عقابًا شديدًا، بل كان منشأة من منشآت الدولة. إنّما من وجهة النظر الاجتماعيّة، فقد كان شيئًا أسوأ من الماخور بكثير.

في نهاية المتاهة التي تنيرها شمعدانات موضوعة بين ستائر سوداء كان الجوّ المفعم بالحبّ مستمرًّا في ركن خاصّ، حيث يشرب بعض الرجال الوحيدين الكونياك، ويغفو بعضهم الآخر متّكئين برؤوسهم على الكونتوار. جلستُ على أحد الكراسي وطلبت كأسًا من الكونياك. ثمّ أتى فرانكو في اللحظة التي أمسك فيها أحد الزبائن الكأس وخبطها على الطاولة. تناثر حطام الكأس، ولم يكلّف الرجل نفسه عناء النظر إلى يده المدماة. أخرج من جيبه منديلًا وقبض عليه بيده المجروحة، غير مبال بالكلام الغاضب الذي وجّهته له النادلة؛ وباليد الأخرى رمى على الطاولة رزمة من الأوراق النقديّة الملفوفة لفًّا، من دون أن يعدّها أو أن ينبس ببنت شفة.

- يا للهول! لم أر قطّ بشرًا يائسين مثل هؤلاء، تمتم فرانكو.

أمّا أنا فلم أحسّ بالهول حقًّا، بل بالحزن والأسى. عدت إلى

حلبة الرقص وأنا أتحضّر للذهاب إلى الفندق، لكنّ الصبيّة التي رقصت مع سِرخيو من قبل كانت وحيدة على طاولتنا، فدعوتها إلى الرقص. في هذه الأثناء شرع سِرخيو يرقص مع صبيّة شقراء لا تبعث على الارتياح، وهي أطول منه بكثير. أحدث تماسي مع شريكتي في الرقص انطباعًا منفّرًا لديّ، فقلت لسِرخيو وأنا أمرّ بجانبه: «هذه العجوز ليس في جسمها عظام»، فأطلق قهقهة مجلجلة وقال:

- أنت محقّ تمامًا، فهي لاعبة في السيرك.

لا بدّ وأنّه ترجم كلامي للشقراء التي ترقص معه لأنّها ضحكت هي أيضًا، ومن ضحكتها أدركت أنّها لم تكن متكلّفة وأنّها أصغر بكثير ممّا بدا لي للوهلة الأولى. عدت إلى الطاولة وكان فرانكو يتحدّث مع النادل ذي المعطف، فتركه ودعا لاعبة السيرك إلى الرقص، وقبل أن ينهض قال لي بالفرنسيّة حتّى لا يفهم النادل كلامه:

- هذا الشابّ لديه الرغبة في أن يروي لنا كلّ شيء.

كان النادل يتقن الإيطاليّة. ولمّا قلت له إنّني صحافيّ كولومبيّ من أميركا الجنوبيّة ومهتمّ بأوضاع الديمقراطيّات الشعبيّة، تبدّدت رصانته وهيئته المتكلّفة، وذهب كلّ ما يشبههما إلى الجحيم. بدأ كلامه بأن قال لي إنّه تعلّم الإيطاليّة في أحد معسكرات الاعتقال، ثمّ رفع ياقة معطفه المقوّاة، وتابع قائلًا من دون توقّف: «اُلْمُسْ هذا القميص». لمستُه وإذا به من القماش الخشن، الغليظ، فأردف وهو يرمقني بنظراته: «حسنًا، إنّ هذا القميص كلّفني راتب شهر كامل».

ثمّ تابع كلامه وهو يحسّ بشيء من بهجة البوح، فقدّم لي جَرْدًا بأثمان كلّ ما يرتديه من ملابس، قطعةً، قطعةً، وانتهى بأن خلع حذاءه وأراني جوربه المثقوب عند الكعب.

- حسنًا، لكنّ الطعام هنا أرخص من الغرب، قلت له.

هزّ كتفيه وقال موضحًا:

– ليس الطعام كلّ شيء.

ثمّ بسط ذراعيه على وسعهما مثلما يفعل أهل الجنوب وأردف متعجّبًا:

– في معسكر الاعتقال كنت آكل طعامًا سيّئًا لكنني كنت أسعد مما أنا عليه هنا.

عاد فرانكو إلى الطاولة وحيدًا، من دون لاعبة السيرك. وبعد أن انتهت جولة الرقص، أتى سِرخيو ليخبرنا بأنّ الصبيّة الشقراء تدعونا لنختم السهرة في منزل أصدقائها. كانوا امرأتين أخريَيْن ورجلًا واحدًا. ذهبنا إلى طاولتهم، فتكفّل سِرخيو ببروتوكول تعارفنا. قدّم لنا الإمرأتين أوّلًا ثمّ عرّفنا بالرجل، وكان ألمانيًّا عمره خمسًا وأربعين سنة، لا يتميّز بشيء سوى بابتسامته العفويّة. هذا الرجل هو الهير فولف.

لاحظت أنّ هذه المجموعة هي من الناس الأنقياء، البسيطين، المختلفين جدًّا عن بقيّة زبائن البار. المرأةُ الكبرى هي زوجة الهير فولف. أمّا الاثنتان الأخريان، الشقراء وصبية سمراء عمرها سبعة عشر عامًا، فهما طالبتان تدرسان الرياضة والتربية البدنيّة. ولم أعرف إلّا في ما بعد سبب وجود هذه المجموعة النقيّة في هذا

المكان العفن. في ألمانيا الشرقيّة هناك فئة اجتماعيّة طفيليّة اسمها «المجرّدون من الملكيّة»، وهم ليسوا سوى البرجوازيّين الذين عاشوا في زمن هتلر ثمّ أُمّمت أملاكهم في زمن الاشتراكيّة، مقابل تعويضات ماليّة. لم يرضَ إلّا القلائل منهم العمل في الوظائف التي عرضتها عليهم الدولة في محلّاتهم وتجاراتهم السابقة، وفضّلوا العيش من التعويضات التي قبضوها، على أمل أن يسقط النظام ذات يوم. أنشأت الحكومة فنادق وبارات ومطاعم فاخرة للبعثات الأجنبيّة والموظّفين الرسميّين، حيث أيّ شيء ثمنه يساوي بؤبؤ العين. ولمّا كانت هذه الأماكن غالية جدًّا بالنسبة لعامّة الشعب، فلا أحد يستطيع ارتيادها غير المجرّدين من الملكيّة؛ والحكومة سعيدة بذلك لأنّها بهذه الطريقة تستردّ أموال التعويضات. يجتمع المجرّدون من الملكيّة معًا كي يبثّوا لبعضهم الأحزان، وكي يتهامسوا بكرههم للدولة بعيدًا عن العيون، ويسكروا مثل البهائم، ثمّ يعيدون إلى الدولة المال الذي بحوزتهم، وذلك مقابل ليالٍ من ألحان الفالس الحزينة والشمبانيا غير المبرّدة. لقد كان الفندق الذي نقيم نحن فيه أحد هذه الأماكن.

غير أنّ التعويضات لا تُورَّث، ولذا فإنّ أبناء المجرّدين من الملكية، وهم مراهقون طفيليّون، لا عمل لهم سوى أن يعاونوا آباءهم على إنفاق المال ما داموا على قيد الحياة. إنّهم جيل جاهل، بلا أفق مستقبليّ، ولا إحساس لديهم أبداً بمعنى الحياة، تمت تربيتهم في جوّ من الضغينة واجترار الماضي البهيّ كلّ يوم. يكرهون ألحان الفالس الحزينة ويعتبرون أنّ الشمبانيا ليس فيها

غير القليل من الكحول. وحتّى تعزل الدولة هؤلاء عن المجتمع، أنشأت لهم هذه الملاهي لسلبهم أموالهم حتّى في المراحيض، وجعلتها نوعًا من معسكرات الاعتقال التي يُحبَسون فيها، فيتعفّنون وهم أحياء.

لا ينتمي الهير فولف إلى هذه الفئة من الناس. في مطلع شبابه كان لديه محلّ لبيع الأسطوانات، وأثناء الحرب عمل ضابطًا في سلك الاتّصالات، واليوم يعمل في ورشة للأدوات الكهربائيّة. أمّا زوجته فهي مسؤولة عن مدرسة داخليّة للطالبات. يعيشان معًا في مبنى المدرسة نفسه، ضمن شقّة تقع في الطابق الأوّل الذي يرتفع عن أرضيّة الشارع قليلًا، وهي شقّة من غرفتين، فيها فرن كهربائيّ وثلّاجة، وليس فيها حمّام أو مرحاض. يوم الأحد، يلبس الهير فولف ثياب المزارعين التقليديّة ويهبط الأدراج وهو يقفز بحيويّة الرياضيّين، فيقصد الحديقة كي يعتني بما يزرعه من الشمندر. زوجته -وهي امرأة أكثر من مرحة بل إنّها المرح بذاته- تحبّ السهر والحفلات. ولذا فإنّ الهير فولف يأخذها إلى الرقص مرّة واحدة في الشهر، يوم السبت. وإن صادف وكانت إحدى فتيات السكن الداخليّ قد فرغت من الدرس والواجبات، اصطحباها معهما. في تلك الليلة اصطحبا اثنتين منهما. ولمّا كان ملهى «فيمينا» هو المكان الوحيد الذي يظلّ مفتوحًا حتّى أولى ساعات الفجر، ذهبوا إليه كي يمضوا سهرتهم، من دون أن يفكّر أيّ منهم بخطر التأثّر بجوّه العفن.

تظاهر سِرخيو بأنّه صحافيّ، فالطلاب الأجانب عمومًا يفضّلون

إخفاء هويّتهم الحقيقيّة حتّى لا يصطدموا بالناس الذين يكرهون الحكومة. ولمّا قالت الشقراء للهير فولف إنّنا جميعًا صحافيّون أجانب، أحسّ بالأمان واشتمّ رائحة فرصة ملائمة كي يخفّف عن صدره ممّا فيه من كره للحكومة، فدعانا إلى أن نختم السهرة في بيته.

ليس الهير فولف متآمرًا بل إنّه مواطن صالح يعي الأوضاع ويشرحها بروح من الدعابة، فمن الزجاجة الأولى من الكونياك بدأ يسخر من أحوال البلاد. قدّمت لنا زوجته قهوة بطعم الهندباء، لا تُشرَب. فقلت حتّى أستفزّ الهير فولف: «إنّها مُعدّة بنيّة غير صافية». فأجاب وهو يكاد يموت من الضحك: «اِعذروني، فهذا الزِّبْلُ هو القهوة الوحيدة المتوفرّة في ألمانيا». كنت أعرف أنّ ما قاله صحيحًا، فنحن منذ أن وصلنا إلى لايبزغ تخلّينا عن تناول القهوة.

كان المذياع يبثّ برنامجًا موسيقيًّا راقصًا، وبعد كلّ باقة من الألحان يبثّ نشرة رسميّة. وكان الهير فولف يطفئ المذياع أثناء بثّ النشرة ويقول: «إنّهم لا يتحدّثون إلّا عن سياستهم المقرفة». فيؤكد لنا سِرخيو أنّها دعاية للنظام. عند الساعة الثالثة فجرًا بُثّت الرسالة الأخيرة وودّعتنا المحطّة على أنغام النشيد الوطنيّ، فاقترحتُ أن نبحث عن محطّة أجنبيّة كي نتابع الرقص. أشرق وجه الهير فولف سعادةً. وعندما حاولتُ، لم يُسمع على موجات المحطّات الأجنبيّة غير ضجيج حادّ، متقطّع، مثل صوت بطّوط: دونالد داك. إنّ محطّات الإذاعات الخارجيّة محجوبة ومشفّرة، ولقد تحقّقت من هذا الأمر بيديّ هاتين.

لم يكن مستغرَبًا أن يكره الهير فولف النظام. غير أنّ ما كان غريبًا حقًّا هو أنّ الصبيّتَين اللتين لا تعرفان شيئًا آخر غير الدولة التي علّمتهما ومنحتهما راتبًا شهريًّا ووعدًا بمستقبل مضمون، كانتا متشدّدتَيْن مثل الهير فولف. وتشعران بالخجل من نوعيّة بدلتيهما وترغبان في معرفة شيء ما عن باريس، حيث يستطيع المرء قراءة روايات من أنحاء العالم بأسره وحيث النايلون منتج شعبيّ شائع. قال لهما فرانكو إنّ كلامهما صحيح، لكنّه ذكّرهما أنّ الطلاب في البلدان الرأسماليّة لا يتقاضون مِنحًا ماليّة من الدولة. لم يكن ذلك يعنيهما، إذ كان جوابهما وجواب غالبيّة الطلّاب الذين عرفناهم، حتّى أولئك الذين يدرسون الماركسيّة في جامعة ماركس-لينين، نفسه تقريبًا:

– فليكفّوا عن الدفع ويتركونا نعبّر بحرّيّة عمّا نرغب به.

فوجئتُ بهذا السخط الجماعيّ، وذكّرتهم أنّ نتائج الانتخابات الأخيرة أسفرت عن نسبة مقدارها 92٪ لصالح الحكومة. فكاد الهير فولف أن يموت من الضحك، ثمّ اعترف لنا وهو يدقّ على صدره:

– نعم، أنا منحت صوتي للحكومة.

كانت الانتخابات حرّة، ولكنْ على كل مفترق وقفت هيئة من المراقبين ومعها لائحة مفصّلة بأسماء سكّان الحيّ كافّة. في يوم التصويت، نزل الهير فولف من منزله في الساعة العاشرة صباحًا وأدلى بصوته. «وعلى كلّ حال كان من الممكن لأيّ شرطيّ أن يأتيني في الساعة الثالثة من بعد الظهر ليذكّرني بواجبات المواطن

الانتخابيّة»، أوضح لنا. كان الاقتراع سرّيًّا، لكنّه فضّل أن يمنح صوته للحكومة تجنّبًا للمشكلات. قلت لسِرخيو وأنا أصرخ:

– قل للهير فولف إنّني أعتبره جبانًا.

ضحك الهير فولف. «هكذا يقول الأجانب كلّهم. وأنا أتمنّى أن أراهم هنا في يوم من أيّام الانتخابات»، أجاب. ربّما لم يكن بوسع أحد أن يفهمه أكثر منّي أنا القادم من كولومبيا، فالنظام العام في ألمانيا الشرقية يشبه كثيرًا النظام الكولومبيّ أيّام الاضطهاد السياسيّ. إنّ الناس ترتعب من الشرطة. ففي فايمار، أوقف فرانكو السيّارة أمام شرطيّ حتّى تسأله عن أحد العناوين فتاتان ألمانيّتان كانتا برفقتنا، لكنّهما رفضتا وفضّلتا أن تسألا أيّ شخص آخر على ألّا يكون شرطيًّا.

ولمّا طلع الفجر علينا ونحن جميعًا نصف مخمورين والهير فولف لا ينتبه إلى علوّ صوته، رُنَّ جرس الباب فجأة. كانت لحظة صعبة إذ رأيت ملامح الجدّية لأوّل مرّة على وجه الهير فولف، فأمرنا أن نلزم الصمت، ثمّ تمتم قائلًا: «الشرطة!». قفزت الصبيّتان إلى غرفة النوم وتظاهرنا نحن بالغباء، بينما ذهبت الزوجة لتفتح الباب. لم يكن هناك أحد غير موزّع الصحيفة الرسميّة اليوميّة حاملًا إليهما عدد اليوم ويطالب بسداد الاشتراك الشهريّ. ليس الاشتراك إجباريًّا، لكنّ الموزّع يطرق الباب في كلّ شهر ويسأل بلطف إن كانوا يرغبون في تجديده، وبالطبع لا أحد يقول لا. رمت الزوجة الصحيفة على الطاولة، وهي لا تزال ترتجف، وأقرّت أنّهما خلال عامَيْن من الاشتراك في الصحيفة لم يقرآ حتّى العناوين الرئيسيّة.

عند الصباح ونحن نتناول الفطور في مطعم المحطة، دخل فرانكو في مشادّة كلاميّة مع سِرخيو. اتّهمه بأنّه لم يواجه الهير فولف، مع أنّه شيوعيّ. كان فرانكو يعتقد بأنّه على الطلاب أن يتبنّوا موقفًا حازمًا تجاه العناصر التخريبيّة. صاح سِرخيو بلهجة صادقة ملؤها الحزن والأسى، وهو بكامل هدوئه:

- لم يقل الهير فولف إلّا الحقيقة.

لم يكن سِرخيو وحده على هذا الرأي، بل كان كذلك عدد كبير من طلّاب الجامعة. فهم يعتقدون بأن لا اشتراكيّة في ألمانيا الشرقيّة، ولا ديكتاتوريّة للبروليتاريا، إنّما مجموعة من الشيوعيّين الذين يحاولون اتّباع التجارب السوفياتيّة حرفيًّا، من دون مراعاة الظروف الخاصّة بالبلد. لقد صفّى هتلر خيرة الشيوعيّين، ومن بقي منهم على قيد الحياة أبعدتهم المجموعة المهيمنة، لأنّهم رأوا أخطاء الحكومة الحاليّة في الوقت المناسب.

إنّ الشباب الماركسيّ لديه قناعة أنّ الواقع لا يتوافق مع العقيدة، لكنّه لا يجرؤ على مواجهة مخاطر التصحيح.

إنّ العمّال بخير غير أنّهم يفتقرون إلى الوعي السياسيّ. فهم يضعون اعتبارات مطلقة ولا يستوعبون لماذا تقول لهم الحكومة إنّ البروليتاريا تمسك بزمام السلطة، ثمّ يتعيّن عليهم أن يعملوا كالحمير كي يتمكّنوا من شراء ملابس يكتسون بها، تكلّفهم راتب شهر كامل. مقابل ذلك، فإنّ عمّال ألمانيا الغربيّة، الذين يتعرضون للاستغلال، ينعمون بالمزيد من الراحة وبملابس أفضل ويتمتّعون بحقّ الإضراب. إنّ الشعب لا يصبر على تحمّل الأعباء كي تنعم

الأجيال القادمة بحياة أفضل. لا أحد يعمل بحماسة وجديّة: من دون التشجيع على المنافسة، فإنّ معامل الألبسة لا تصنع سوى ملابس مريعة لا تصلح إلّا فزّاعات للطيور. ولمّا كان القائمون على الخدمة بلا رؤساء، ولا يمكن لأحد أن يطردهم من عملهم، وهم لا يعرفون ماذا تعني الاشتراكيّة من دون حذاء، فإنّهم يلفّون ذراعًا على ذراع أثناء العمل، بينما الزبائن ينتظرون ولا يبالون في أن يصطفّوا بالدور طوال بعد الظهر من يوم الأحد كي يحصلوا على كأس من الليمونادة. بدءًا من الوزارات وحتّى المطابخ هناك تعقيد بيروقراطيّ مركّب لا أحد يستطيع حلّه إلّا النظام الشعبيّ الذي ركّبه.

قد يكون الإضرابُ سلاحَ العمّال القانونيّ، لكنّ الحقّ فيه مفقود لأنّ النظام دوغمائيّ ويقول إنّه من العبث أن تُضرِب البروليتاريا احتجاجًا على نفسها، بينما هي التي تمسك بزمام السلطة. إنّها سفسطة لا مخرج لها. «الثورة لم تحدث في ألمانيا، بل جُلِبَت في صندوق من الاتّحاد السوفياتيّ، وأُلقِيَ بها هنا من دون الاعتماد على الشعب»، قال لنا الطلّاب الماركسيّون.

إنّ الشعب في ألمانيا الشرقيّة لا يبالي بتطوّر الصناعات الثقيلة، ولا يهمّه أبدًا أن يأكل البيض المقليّ عند الفطور أو لا، وهو لا يرى أيّ جديد تحت الشمس غير أنّ ألمانيا قد قُسّمت إلى شطرَيْن، وأنّ هناك جنودًا روسًا في البلاد مسلّحين ببنادقهم الآليّة. أمّا سكّان ألمانيا الغربيّة فيرون الأمر على نفس الشاكلة تمامًا: البلد مقسّم والجنود الأميركيون يجولون فيه بأحدث السيّارات. لا أحد من

الجانبين يجرؤ على الاحتجاج على الأوضاع لأنّهما يعرفان أنّهما خسرا الحرب، وأنّ رأس كلّ منهما مدفون في الرمال في الوقت الحاضر. لكنّهما يعرفان في السرّ ما يريدان فعلًا قبل الحديث عن الاشتراكيّة أو الرأسماليّة: توحيد ألمانيا وجلاء القوات الأجنبيّة.

شخصيًّا، أعتقد أنّه في عمق الأشياء هناك غياب مطلق للحساسيّة الإنسانيّة حيال هذه الأوضاع، فالانشغال بالجماهير يُعمي عن رؤية الفرد. وهذا الأمر ينطبق على المواطنين الألمان كما ينطبق على الجنود الروس. في فايمار لا يتقبّل الناس أن يسهر على حراسة الأمن والنظام في محطّة القطارات جنديّ روسيّ يحمل بندقية آليّة. ولكن، لا أحد أيضًا يفكّر في هذا الجنديّ، الفرد، المسكين. في فايمار تحديدًا، مررنا في إحدى الليالي بحديقة مغلقة الأبواب، تنبعث منها موسيقى مارشات عسكريّة، وكان ذلك حفلة خاصّة في نادي الضبّاط الروس. دُعينا بالإشارة فدخلنا لنجد هناك جوًّا ودّيًّا، مبهجًا، فيه شيء من البساطة والسخاء. كانت حلبة الرقص، المصنوعة من الطوب، محاطة بصور كبيرة ملوّنة للزعماء السوفيات. بدأت الفرقة الموسيقيّة العسكريّة تعزف مقطوعة قديمة، تشبه لحن رقصة التشارلستون كثيرًا، فرقص عليها الضبّاط مع زوجاتهم وهم يقفزون. اقترب أحدهم من جاكلين، وكان صدره مثقلًا بالأوسمة، فأخذها إلى الرقص. ثمّ اقتربت من فرانكو سيّدة جليلة، محتشمة، ترتدي زيّ فلّاحة أوكرانيّة، ودعته كي يرقص معها وهي تنحني له بلطف وتمسك بأطراف أصابعها ثنيات تنّورتها العريضة. فعلتُ أنا الشيء نفسه مع زوجة ضابط

آخر. سادت على الحلبة حماسة عارمة، فاضت عن حدّها، فحاولنا تحمّلها مكرهين.

في ذلك الجوّ المفعم بالذكريات والحنين إلى أرض الوطن، كان اثنان من الجنود يرقصان معًا وهما نصف غافيين من شدّة السكر.

وحينما عدت كي أُجلِس المرأة التي كنت أرقص معها، رأيت سِرخيو يتحدّث مع ضابط يعرف قليلًا من الألمانيّة. قال إنّه يحسدنا لأنّنا ذاهبون إلى موسكو. لا بدّ وأنّه ترجم ذلك الخبر إلى الروسيّة، لأنّ مجموعة من الضبّاط اقتربوا منّا مع زوجاتهم كي يرونا عن كثب، نحن أصحاب الحظّ السعيد بالسفر إلى الاتّحاد السوفياتيّ. تابعوا حديثهم مع سِرخيو عن طريق الضابط الذي يتحدّث الألمانيّة، فقالوا إنّ بعضهم يُجري معاملات إداريّة منذ سنتين كي ينتقل من ألمانيا، حيث يعيشون كالطفيليّين ولا يفعلون شيئًا، تحيط بهم صور المشاهد الروسيّة، ويتطلّعون بلهفة إلى لحظة العودة إلى بلادهم.

انقطع الحديث بسبب جاكلين، فقد أتت تبحث عن مترجم كي تعرف معنى جملة قالها لها الضابط الذي كان يرقص معها. كرّر الضابط الجملة بالروسيّة وقد احمرّ وجهه حتّى أذنيه خجلًا. ترجمها الضابط الذي يعرف الألمانيّة لسِرخيو، فأعاد سِرخيو قولها لفرانكو بالإسبانيّة، وأخيرًا نقلها فرانكو إلى جاكلين بالفرنسيّة. قهقه الجميع ضاحكين، إذ كان ما قاله الضابط لجاكلين إعلانًا منه بوقوعه في حبّها. ولمّا أدرك الضابط أنّ الجميع قد فهموا، بدأ

يقفز كالولد الصغير، وهو يكاد أن يموت من الضحك وأنفه محمرّ كقرص البندورة، ثمّ قال صائحًا:

– لو علمت زوجتي بما قلت لقتلتني. أتمنّى ألّا تسمع بذلك.

هؤلاء هم العسكر الروس. يعيشون مللًا قاتلًا في بلد لا يعرفون لغته ويعرفون أنّهم مكروهون فيه. يرى المرء منهم مظهرهم فيبدون بوجوه جامدة، كأنّها مصبوبة من الإسمنت المسلّح، مثيرة للدهشة والغرابة، إلى أن يكتشف أنّ ذلك المظهر الفظّ ليس إلّا خجلًا خالصًا. إنّ الجنود السوفيات هم على وجه الخصوص من أبناء الجبال، يتميّزون بالقساوة والسذاجة، ويُصطادون بالأنشوطة ويُؤتى بهم من أقاصي القرى السوفياتيّة النائية. وليس كذبًا أو مبالغة: حينما اقتحموا برلين حطّموا المغاسل لاعتقادهم أنّها معدّات حربيّة. وبعض هؤلاء لا يزالون في ألمانيا بلا نساء، يسكرون وحيدين ويرقصون مع بعضهم في النوادي الخاصّة بهم. إنّ عادة رقص الرجال معًا هي عادة شائعة في الاتّحاد السوفياتيّ، لكنّها في ألمانيا الشرقيّة ضرورة مفروضة بحكم الظروف.

لقد رأينا هؤلاء الجنود يحوّمون أزواجًا أزواجًا حول الفتيات الألمانيّات اللواتي يتوقّفن أمام واجهات المحلّات ويتأمّلنها بعد خروجهنّ من السينما. يسيل لعابهم لرؤيتهنّ لكنّهم لا يجرؤون على الاقتراب منهنّ لمعرفتهم أنهنّ سيلاقينهم والحجارة في أيديهنّ. حتّى العاهرات القليلات اللواتي يعملن سرًّا، يتجنّبنَهُم خوفًا من افتضاح أمرهنّ والإبلاغ عنهنّ. منذ عام وفي مدينة فايمار، فقد اثنان من هؤلاء الجنود رشدهما ولم يعودا يحتملان الحرمان.

فبعد أن شربا ورقصا طول الليل في حفلة ليس فيها غير الرجال، خرجا إلى الشارع واغتصبا أوّل امرأة وقعت بين أيديهما. كانت عاقبة السكرة مريعة: فعبرة لبقيّة الجنود، أُعدِما رميًا بالرصاص على مرأى من رفقائهما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-4-

في نظر المرأة التشيكيّة، جوارب النايلون جوهرة ثمينة

منذ سنتين طلبت تأشيرة دخول من السفارة السوفياتيّة في روما، وذلك من أجل الذهاب إلى موسكو موفدًا خاصًّا لإحدى وكالات الأنباء. في أربع مراجعات متتالية، أجبت أربع مرّات على الاستجواب نفسه الذي صاغه أربعة موظّفين مختلفين. وأخيرًا وعدوني بأن يرسلوا لي الردّ بالبريد، لكنّه لم يصلني بعد. في باريس اختصر المسؤولون الأمر وكانوا أكثر وضوحًا. ففي متاهة سفارتهم الواقعة في شارع غرونيل، جعلوني أمرّ في ثلاث صالات مزيّنة بصور للينين، مطبوعة بتقنيّة الطباعة الحجريّة، وفي الصالة الأخيرة أجابني الموظّف نفسه الذي استقبلني في الصالة الأولى، بفرنسيّة تكاد لا تُفهم: من غير المجدي أن تتقدّم بطلبك من دون دعوة من هيئة رسميّة سوفياتيّة.

إلّا أنّ الأحوال تبدّلت منذ السنة الماضية فصارت قوافل السيّاح المنظّمة تنطلق من باريس وتزور موانئ بحر البلطيق والبحر الأسود، على عجل في مدّة لا تتجاوز الخمسة عشر يومًا. إنّ رحلةً من هذا النوع تنطوي على شيء من المخاطرة في نظر الصحافيّ

النزيه إن قبل القيام بها، لأنّه بذلك يجازف باستخلاص أحكام سطحيّة، متسرّعة ومجتزأة، قد يعتبرها القارئ نتائج نهائيّة.

حينما كنت في برلين وعُرِضَتْ عليّ فرصة الذهاب إلى موسكو لحضور المؤتمر السادس للشباب فيها، اعتبرت أنّ ذلك أسوأ من القوافل السياحيّة، فبدلًا من 500 شخص سوف نكون 40000. لقد تجهّز الاتّحاد السوفياتيّ مدّة عامين كي يستقبل ضيوف المهرجان القادمين من جميع أنحاء العالم، وكان ذلك سببًا كافيًا كي نعتقد أنّنا سنرى واقعًا مفبركًا ومعَدًّا للأجانب بدلًا من الواقع السوفياتيّ الفعليّ. ولا غرابة في الأمر حقيقةً، لأنّ الدول الاشتراكيّة تعرف أنّ غالبيّة من يحضرون المهرجانات ليسوا شيوعيّين، وأنّهم يأتون وهم محضّرون لتصيّد العيوب والأخطاء، وتعرف أيضًا أنّهم ليسوا مؤهّلين كفاية لتفسير تجاربهم بتعقّل وإنصاف. وفوق ذلك اشترط السوفيات في مهرجان موسكو تحديدًا اعتماد أقلّ عدد ممكن من الشيوعيّين بين المدعويّين. «إنّ تحايُل البولونيّين لا حدود له، فلكي يحملونا على الاعتقاد أنّ في بولونيا حريّة دينيّة، فتحوا الكنائس ووضعوا في كلّ ركن من أركانها موظّفين حكوميّين متنكّرين بزيّ الخوارنة»، كما قالت لي منذ عام في روما إحدى الصبايا اللواتي حضرن مهرجان فرصوفيا. والحقيقة أنّ إعادة إعمار فرصوفيا كانت قد بدأت بالمعابد الكاثوليكيّة أوّلًا، ثمّ إنّ الكهنة غير المنخرطين في السياسة يتمتّعون فيها بحريّة دينيّة مطلقة. لم يرَ الرأسماليّون -حتّى أصدقهم وأنزههم- في الجهود الوطنيّة المبذولة في إعادة الإعمار غير حدث عاديّ، واكتفوا بمعرفتهم أن

ليس في فرصوفيا سيّارات، وأنّ الناس فيها ترتدي ملابس رديئة، وأنّ المصاعد تتعطّل بين كل طابقَيْن. في فرصوفيا تهامس الناس قاطبة في ما بينهم بخصوص الكاردينال فيزينسكي، كبير أساقفة بولونيا، لأنّه وُضع في السجن، في حين أنّ أحدًا لم يلحظ -حتّى الموفدين الشيوعيّين- أنّ فلاديسلاف غومولكا يقبع في السجن أيضًا، وهو القائد الشيوعيّ الذي تعيّن على الشعب أن يبادر إلى التحرّك من أجله وإطلاق سراحه بعد عام من تنظيم المهرجان كي يتولّى مهمّة الإشراف على مصير بولونيا.

تستغلّ بعض الحكومات الغربيّة مدّة المهرجان البالغة خمسة عشر يومًا كي تزرع فيه جواسيس مزوّدين بتعليمات محدّدة. في مهرجان موسكو وُزّع سرًّا بين الحشود منشور مطبوع باللغة الإنكليزيّة يحرّض على الاتّحاد السوفياتيّ، ولقد حدث شيء مشابه أيضًا في المهرجانات السابقة. ومع أنّ الدول الاشتراكيّة تعلم أنّ هذه الأشياء تحدث، فإنّها -وعن حقّ- تتدبّر الأمر كي يرى الموفدون الأجانب الأمّة مرتدية ثياب الاحتفال وكأنّها في يوم مزدحم من أيّام العيد، يمتدّ خمسة عشر يومًا. من جهتي لم أكن أرغب برؤية الاتّحاد السوفياتيّ وقد صفّف شعره ورتّب هندامه كي يستقبل زوّاره. فالبُلْدان، كما النساء، يجب التعرّف عليها وقد أفاقت للتوّ من النوم.

كان لفرانكو رأي آخر، فهو يعتقد -والآن أدركُ أنّه كان محقًّا- أنّ السطحيّة في الأحكام تعود جزئيًّا إلى الموفدين أنفسهم. وعلى المرء أن يحدّد معنى كلمة «المهرجان» حتّى يستوعب كيف يمكن

له قضاء أربعة عشر يومًا في مدينة من دون أن يكتشفها. في احتفاليّة موسكو، أقيم مهرجان للسينما قُدّمت فيه أربعة عروض يوميًّا، ومهرجان عالميّ للمسرح، بالتوازي مع الألعاب الرياضيّة، وافتُتِحَ 325 معرضًا في الرسم والتصوير الضوئيّ والفنون الشعبيّة والأزياء التقليديّة من جميع أنحاء العالم. نُظّمت مسابقات في الموسيقى والرقص قُدِّمت في ستة عروض يوميًّا، وذلك في الوقت نفسه الذي نُظّمت فيه ندوات عن العمارة والفنون التشكيليّة والسينما والأدب والطبّ والفلسفة وعلوم الإلكترونيّات. محاضراتٌ شتّى حول مواضيع لا حصر لها، قدّمها متخصّصون أتوا من أنحاء المعمورة بأسرها. ما من هيئة سوفياتيّة رسميّة إلّا وأقامت حفلات استقبال حضرها مدعوّون من الوفود كلّها. ما من وفد من الوفود البالغ عددها 382 إلّا وأقام حفلًا دعا إليه كلّ وفد من الوفود الأخرى. بلغ تعداد الوفد الفرنسيّ وحده -من دون حساب الممثّلين الدائمين في الثقافة والرياضة والعلوم- ما يقارب ثلاثة آلاف عضو. وفي أقلّ الساعات نشاطًا كان يتعيّن على المرء أن يختار بين السيرك الصينيّ أو رحلة برفقة بابلو نيرودا أو زيارة إلى الكرملين أو معرض عن المطبخ الياباني أو دعوة إلى تعاونيّة زراعيّة أو حضور عرض للدمى التشيكيّة أو الرقص الهنديّ أو مباراة بكرة القدم بين الهنغار والطليان أو لقاء خاصّ مع موفدة سويديّة. جُمّعت هذه الأنشطة كلّها وحُشرت في مدًى زمنيّ مقداره خمسة عشر يومًا، وفي مدينة تفوق التصوّر في اتّساعها حيث يحتاج المرء إلى ساعة من الزمن كي يصل إلى أيّ مكان منها. أعتقد بصدق أنّ بعض الموفدين لم يتسنَّ لهم الوقت لمقابلة روسيّ واحد.

اعتقدَ فرانكو أنّه بوسعنا استثمار تلك البلبلة، وأنّه علينا أن نترك النشاطات والعروض وأن نخرج إلى الشوارع كي نتحدّث مع الناس الذين أتوا من أنحاء الاتّحاد السوفياتي كلّه، متعطّشين للحديث مع الأجانب بعد أربعين عامًا من الانقطاع التام عن بقيّة سكّان الأرض. كان لا بدّ لنا من الاختيار بين المهرجان ومحاولة تكوين فكرة معقولة عن الواقع السوفياتيّ، وقرّرنا التضحية بالمهرجان.

ولئن كلّفتني التأشيرة السوفياتيّة ستّ سنوات من الإلحاح والإصرار، فإنّ التأشيرة البولونيّة لم تكلّفني سوى عشر دقائق من الانتظار، لم أنبس خلالها ببنت شفة. كنت قد تمكّنت من الحصول على قبول بصفة مراقب في المؤتمر الدوليّ للسينما في فرصوفيا، برفقة ملائمة ومريحة مكوّنة من 22 موفدًا. كُتِبت الدعوة باللغة البولونيّة فتقدّمت بها إلى القنصليّة ووضعتها على طاولة البوّاب، مرفقة بصورتَيْن شخصيّتَيْن لي. سمعتُ من خلال باب المكتب صوت القنصل وهو يتحدّث بالهاتف مع فرصوفيا ويلفظ اسمي بطريقة اعتباطية إلى حدّ ما. بعد ربع ساعة كانت تأشيرة الدخول إلى بولونيا في جيبي.

انتهت إجازة جاكلين فعادت إلى باريس وأودع فرانكو السيّارة في أحد مرائب برلين، ثمّ تابعنا معًا سفرنا بالقطار نحو براغ، من دون أن يكون لدينا تأشيرة دخول تشيكيّة. استغرقت الرحلة خمس عشرة ساعة، لكننا أمضينا أربعًا منها على الحدود، في قطار خالٍ من المسافرين، خضع لتفتيش دقيق. توقّفنا في آخر قرية ألمانيّة

مدّة ساعتين، رغم أنّ الإجراءات الجمركيّة لم تتجاوز الخمس دقائق. وعند المساء تحرّك القطار فغادر المحطّة وهو يسير بطيئًا بسرعة لا تتجاوز سرعة المشي لدى الإنسان العاديّ، فعبر وهو على هذه الحال قرية كُتِبَت اللافتات فيها بالألمانيّة. وعند الطرف الآخر من القرية توقّف أمام جسر عليه لافتة بالتشيكيّة، كانت قطعة من القماش الأحمر، كُتبت عليها الكلمات بالفرشاة. وعلى الجسر وقف بضعة جنود يحملون بنادق آليّة. استأنف القطار مسيره بعد أن تحقّق الجنود أن لا أحد يختبئ تحت العربات، ثمّ توزّعوا على جانبي القطار فواكبوه وهم يمشون بخطى عاديّة على درب أخفاه العشب. وبعد كيلومتر واحد وصلنا إلى أوّل محطّة تشيكيّة، وفيها انتظرنا ساعتين أخريَيْن.

لم يكن هناك ما يلفت النظر في تلك المحطّة غير الموسيقى المنبعثة من مكبّرات الصوت، والنساء اللواتي حُشرن في ملابس موظّفي السكك الحديديّة. من الشائع رؤية النساء بالبنطال، لكنّ الإحساس غريب بعض الشيء لدى رؤيتهنّ بالبدلة الكاملة والقميص وربطة العنق والأحذية الرجّاليّة وربطة الشعر المخفيّة تحت القبّعة. في ما بعد، كان لا بدّ أن أنتبه إلى أنّ الخدمة في جميع المحطّات تقوم بها نساء يرتدين الزيّ نفسه. كان الجوّ حارًّا فعاودني شغفي المهنيّ في البحث عن أوجه التشابه بين الأشياء في أوروبّا وقُرانا في كولومبيا، وجعلني أعتقد بأنّ هذه المحطّة بلهيبها وإقفارها، وبالرجل النائم أمام عربة المرطّبات المعبأة بقوارير ملوّنة، تشبه تمامًا المحطّات المتّسخة بالغبار في منطقة

مزارع الموز في سانتا مارتا. ولقد تعزّز انطباعي هذا من الموسيقى التي تُبثّ: أغاني البوليرو لفرقة لوس بانتشوس، وأغاني المامبو والكوريدو المكسيكيّة. ولقد أُعيد بثّ أغنية «بيرفيديا» عدّة مرّات. وبعد وصولنا بعدّة دقائق بُثّت أغنية «ميغيل كانالس» لرفائيل إسكالونا، في تسجيل جميل لم أكن قد سمعته من قبل. حاولت أن أنزل من العربة كي أرى الأسطوانة، لكنّ الباب كان مقفلًا. أشارت لي إحدى عاملات المحطّة وهي تومئ بيديها أنّه لا يمكنني النزول حتّى يتمّ التحقّق من جوازاتنا.

أتانا اثنان من عناصر الجمارك، وكانا شابّين ودودين، يرتديان زيًّا كامل الأناقة، خفيفًا ومريحًا، كالزيّ الذي يرتديه عناصر الجيش الأميركيّ. كان أحدهما يتحدّث الفرنسيّة، فطلب منّا التأشيرة التشيكيّة. قلت له إنّنا أتينا بلا تأشيرة، فلم يُبدِ استغرابه. وبعد أن تحدّث مع زميله، أخذ جوازَي سفرنا وذهب. بعد قليل عاد وقال إنّ مسؤول الحدود يتّصل هاتفيًّا ببراغ بشأننا. بعد نصف ساعة مُنحنا تأشيرة ترانزيت مع الحقّ بالبقاء خمسة عشر يومًا في تشيكوسلوفاكيا.

كان هذا التبسيط في المعاملات أوّل ما لقيناه من الفوارق عن النظام البيروقراطيّ في ألمانيا الشرقيّة، إذ لقينا في ما بعد فوارق أخرى. تُباع المرطّبات والبيرة التشيكيّة الفاخرة بكؤوس من الكرتون كُتب عليها «ارمِ هذا الكأس بعد استعماله إلى القمامة». إنّ هذه الاحتياطات الصحّيّة تُرى في كل مكان، والمطاعم نظيفة وجوّها هادئ والخدمة فيها جيّدة ومراحيضها أفضل من أيّ بلد

آخر في أوروبّا الغربيّة، وهي بطبيعة الحال أفضل من باريس بكثير.

بعد الانتهاء من تدقيق الجوازات، لا بدّ وأنّ أحد الأبواب المغلقة قد فُتح فجأة في مكان ما، لأنّ حشدًا من البشر خرجوا من تحت الأرض عبر الأنفاق مستعجلين كي يصعدوا إلى القطار. ارتدى الرجال منهم ملابس من نوعيّة جيّدة، والنساء بغالبيتهنّ العظمى بنطلونات رجّاليّة، فُصِّلَت للذكور ولها فتحات أزرارها على الجانب الأيمن، أمّا الأطفال فقد تميّزت ملابسهم بالعناية والذوق. بدا العسكر المحمَّلون بالحقائب والأكياس، وهم إلى جانب نسائهم وأطفالهم، ضائعين وسط الحشد.

بعد قليل، انطلق القطار وانسلَّ عبر منطقة زراعيّة مُمَكْنَنَة، استُثمِرَت حتّى آخر شبر فيها، وبدت في كلّ ركن منها أعمال الريّ الهندسيّة الضخمة الناجزة أو تلك التي لا تزال قيد الإنشاء. أمّا على أطراف براغ فلقد حلّت المراكز الصناعيّة مكان الحقول الزراعيّة. في الليلة الأولى صادفنا في طريقنا قطارًا طويلًا لا نهاية له، محمّلًا بالحافلات الجديدة والآلات الزراعيّة التي خرجت للتوّ من المصانع. حاول فرانكو أن يفتح النافذة. على مقربة منّا، كان يجلس رجل تشيكيّ في الأربعينات من العمر، تغفو في حضنه طفلة ملتفّة بمعطف مطريّ، فلاحظ معاناة فرانكو في إنزال زجاج النافذة المغلقة، وقال له بالفرنسيّة:

– ادفعه نحو الأمام.

أوضح لنا رفيق سفرنا أنّ الحافلات والآلات الزراعيّة هي مواد معدّة للتصدير إلى النمسا. وقال لنا إنّ تشيكوسلوفاكيا تصدّر

الآلات إلى بلدان غربيّة كثيرة وإلى العالم الاشتراكيّ بأسره أيضًا، بما فيه الاتّحاد السوفياتيّ. كان وكيلًا تجاريًّا، عائدًا من فرنسا في رحلته الرابعة إلى الخارج هذا العام. كشف لنا أنّه ليس شيوعيًّا وأنّه لا يهتمّ بالسياسة، لكنّه مرتاح وسعيد في تشيكوسلوفاكيا، ولا تهمّه إغراءات الثراء في أميركا. كان جواز سفره محدودًا ولا يستطيع استخدامه إلّا للأسفار المتعلّقة بأنشطته التجاريّة، وفي هذه المرّة سُمح له أن يصطحب معه ابنته البالغ عمرها اثنتي عشرة سنة، كي تتعرّف على باريس. بعد عدّة أسابيع، وأنا في طريق العودة إلى فرنسا، التقيت أيضًا في القطار بعائلة تشيكيّة ذاهبة إلى باريس لقضاء العطلة. أسرّ لأفرادها أحد المسافرين الفرنسيّين قائلًا: «في باريس، هناك مكان تُصرَّف فيه العملة التشيكيّة بسعر أعلى من السعر الرسمي بثلاثة أضعاف». رفض ربّ الأسرة التشيكيّ العرض.

– هذا يضرّ باقتصادنا، قال.

إنّها حالة خاصّة تتناقض ومواقف بعض أصحاب المهن في ألمانيا الشرقيّة. إنّ مخرجي المسرح والأطبّاء في تشيكوسلوفاكيا يتقاضون رواتب عالية جدًّا. فالدولة تعلّمهم وتؤمّن لهم التخصّص ثمّ تجد نفسها مضطرّة لأن تمنحهم أجورًا مرتفعة كي تحول دون هجرتهم إلى الغرب. لم ألتقِ بأيّ تشيكيّ غير راض بحظّه تقريبًا. والطلّاب في هذا البلد لا يتذمّرون إلّا في ما ندر من الرقابة غير اللازمة والمفروضة على الأدب والصحافة الأجنبيَّيْن، كما أنّهم لا يتأفّفون فعلًا من العراقيل الموضوعة في وجه من يريد السفر إلى الخارج.

في الليلة التي كنّا قد وصلنا فيها إلى لا يبزغ ظنّ فرانكو أنّ انطباعنا الأوّل عنها يعود إلى ما صادفناه فيها من مظاهر: الإنارة الحزينة والمطر الناعم الخفيف. وصلنا إلى براغ في الحادية عشرة ليلًا، تحت المطر الخفيف نفسه، لكننا رأينا مدينة بهيّة، نابضة بالحياة، تمامًا مثلما رأيناها بعد اثنتي عشرة ساعة في صباحها الصيفيّ المشرق. أرسلنا مكتب الاستعلامات الدوليّة في المحطة إلى فندق بالاس، وهو أحسن فندق في المدينة. وهناك أُعلِمنا بوجود طريقتين لتصريف العملة: التصريف العاديّ، وبه يُصرف الدولار بأربعة كورونات تقريبًا؛ ثمّ التصريف السياحيّ وبه نحصل على الضعف. كان الفارق أنّه بالتصريف السياحيّ نُعطى ستّين بالمائة من المبلغ قسائمَ لا يمكن صرفها إلّا في الفندق. أجرينا حساباتنا، فأدركنا أنّه في هذا الفندق بأربعة دولارات يمكننا استئجار غرفة مجهزة بحمّام وهاتف إضافة إلى ثلاث وجبات من الطعام. قُدّم لنا مع العشاء نبيذ فرنسيّ فاخر، لا يمكن أن نجده بهذا السعر حتّى في مطاعم باريس الرخيصة.

عند منتصف الليل تجوّلنا في وسط المدينة. وهناك، في مقاهي جادة فينسيسلاف امتزج دفق الموسيقى بضوضاء الجموع الخارجة من السينما والمسرح. فأفراد تلك الجموع كانوا يتساءلون عن إسبانيا وهم يحتسون البيرة على التّراسات الممتدّة تحت الأشجار، وذلك بعد أن حضروا العرضَين اللذين حقّقا نجاحًا كبيرًا في الموسم الأخير: فيلم «موت سائق الدرّاجة» لباردن، ومسرحيّة «ماريانا بينيدا» لغارسيا لوركا.

خرجت مجموعة من الأشخاص من إحدى دور السينما ودخلت إلى كباريه مجاور لها يقع في المبنى نفسه. تبعناهم، وعندما نظرنا إلى لائحة الأسعار، رأينا أنّ الدخول بخمس كورونات، وكأس البيرة بأربع. كان كباريهًا من تلك الكباريهات المصنّفة دوليّة، والتي تكلّف غاليًا جدًّا في الصيف الأوروبيّ. رأينا فور دخولنا مغنّية ترتدي ثوبًا يكشف عن مفاتن صدرها وتغنّي النسخة التشيكيّة من أغنية «Siboney» الكوبيّة الشهيرة.

طلبنا كؤوسًا من البيرة، فتناولتُ كأسي برويّة وأنا أحاول أن أعثر في المكان على تفصيل يسمح لي بالتفكير بأنّنا لسنا في بلد رأسماليّ. دعا فرانكو صبيّة من الطاولة المجاورة إلى الرقص. كان اليوم ثلاثاء، ولم يكن الزبائن متأنّقين كما حالهم لو أنّهم في إيطاليا وفي الظروف نفسها. بدا الجوّ أقرب إلى جوّ الطبقة الوسطى في كولومبيا، وهي تحيي حفلة من حفلات مساء السبت الراقصة. بعد أن أنهى فرانكو جولة الرقص، أتى كي يعرّفني على الصبيّة وكانت تتحدّث الإنكليزيّة، فدعوناها للجلوس. ذهبت إلى الطاولة المجاورة كي تخبر رفقاء سهرتها بقبولها دعوتنا، ثمّ عادت إلى طاولتنا ومعها كأس البيرة. قلت لفرانكو:

– لا أجد أيّ مؤشّر هنا يدل على الفرق بين النظامَيْن الاشتراكيّ والرأسماليّ. مكتبة سُر مَن قرأ

فلفت انتباهي إلى فارق مهمّ: «الأسعار». وعندما هممت بالذهاب إلى الرقص نبّهني قائلًا: «انظر إلى المغنّية». نظرت إليها وأنا أرقص فلاحظت أنها شقراء، مفضّضة الشعر، قصيرة جدًّا رغم

الكعب العالي الذي تنتعله، وعليها ثوب مخصّص للسهرة، لونه كحلي، لكنّي لم أكتشف فيها أيّ شيء مميّز، فقال فرانكو بإصرار:

– انظر إلى أصابع قدميها.

نظرتُ فرأيتُ ما يجب أن أراه: جورباها المصنوعان من النايلون، باليَيْن عند رؤوس الأصابع.

اعترضت بالقول إنّه لا يمكن للمرء أن يدقّق كلّ هذا التدقيق حتّى يكتشف عيوب نظام ما، ففي باريس ينام عدد كبير من الرجال والنساء على الأرصفة ملتحفين بالجرائد، حتّى في الشتاء، مع ذلك فإنّ أحدًا لم ينشغل بأمرهم قطّ. بيد أنّ فرانكو أصرّ على أهمّيّة ملاحظته. «على المرء أن يتعلّم كيف يقيّم التفاصيل، فالجوارب البالية في نظر امرأة تنشغل بمظهرها، كارثة قوميّة»، قال ثمّ أنهى كأسه وعاد إلى حلبة الرقص.

رقص جولتَيْن متتاليتَيْن من دون أن يرجع إلى الطاولة. ولاحظتُ من الطريقة التي يرقص بها مع شريكته أنّه أصبح على وئام تامّ معها، وهي صبيّة نحيلة ورقيقة جدًّا وتتميّز بروح المرح والدعابة. تواريا عن الأنظار مدّة غير قليلة، حتّى إذا عادا إلى الطاولة، أدركتُ أنّهما كانا يتناولان الشراب معًا على الكونتوار لأنّ فرانكو عاد نصف سكران. طلب كأسًا أخرى من البيرة، ثمّ عرض على الصبيّة، وهو يهمس في أذنها بصوته الذي رخّمه السكر، أن ترافقه إلى الفندق. ضحكت ثمّ تمتمت في أذنه وهي تقلّد رخامة صوته:

– اذهب إلى الطاولة الأخرى واطلب إذنًا من زوجي.

تبدّدت سخونة الجوّ، وبعد قليل اجتمعت الطاولتان معًا، فروت

الصبيّة الطرفة وضحك الجميع. طارت السكرة من رأس فرانكو وأحسّ بالحرج، لكنّ الزوج تكفّل بترقيع الموقف وتجاوزه، فاقترح علينا أن نذهب جميعًا كي نشاهد طلوع الفجر من قلعة المدينة القديمة. اشترى زجاجتَيْن من الفودكا البولونيّة، وعند الساعة الثالثة فجرًا بدأنا نصعد الأزقّة المرصوفة بالحجارة ونحن نغنّي أغاني «الكوريدو» المكسيكيّة. فجأة، توقّفت الصبيّة التي رقصت مع فرانكو، فجلست على الرصيف ثمّ خلعت جوربَيْها الطويلَيْن ووضعتهما في الجزدان.

– يجب أن أحافظ عليهما، قالت لنا. فجوارب النايلون غالية الثمن جدًّا.

أشرق وجه فرانكو غبطة، ولطمني بكفّه على ظهري. فهمت دوافع غبطته على الفور، فذات يوم وأنا في نيس –أغلى شواطئ أوروبّا– أحسست بالغبطة نفسها، حينما تبيّن لي أنّ قاذورات المدينة، عند ارتفاع المدّ، تطفو على وجه الماء حيث يسبح الأثرياء وأصحاب الملايين.

-5-

سلوك الناس اليوميّ في براغ لا يختلف عنه في أيّ بلد رأسماليّ

لقد استوعبَت براغ أكثر المؤثّرات عسرًا على الهضم من دون أن تُصاب بالسمنة ومن دون أن تتقرّح معدتها. إنّها حدّ وسط بين الماضي المحفوظ أحسن حفظ والحاضر الأكثر اتّزانًا. فيها شارع ضيّق، اسمه شارع الخيميائيّين، وهو أحد المتاحف القليلة المصمّمة بحسّ سليم، إذ صمّمته الأيّام. في القرن السابع عشر، كان فيه بعض الدكاكين الصغيرة التي تبيع اختراعات عجيبة، وكان الخيميائيّون يُصابون في داخلها بالحروق في وجوههم بحثًا عن الحجر الفلسفيّ وإكسير الحياة الأبديّة. لكنّ الزبائن السذّج الذين انتظروا المعجزة فاغري الأفواه -لا شكّ في أنّهم اقتصدوا المال ووفّروه كي يشتروا الإكسير حالما يُعرض على الواجهات- ماتوا وهم ينتظرونها فاغري الأفواه أيضًا. ثمّ مات الخيميائيّون بعدهم وماتت معهم وصفاتهم المُحْكَمَة التي لم تكن شيئًا غير قصائد في العلم. واليوم هذه الدكاكين مغلقة، ولم يحاول أحد تزييفها كي يدهش السيّاح بها. وبدلًا من تركها تمتلئ بالخفافيش وشباك العناكب كي يبدو عليها القدم، فإنّها تُطلى كلّ عام بطلاء بسيط

من اللونين الأصفر والأزرق الفاقعين، فلا تنفكّ تبدو جديدة، لا جدّة اليوم، إنّما جدّة القرن السابع عشر. ليس في الشارع لوحات تعريفيّة تتحدّث عنه، ولا شروحات مسهبة حول تاريخه. يسأل المرء التشيكيّين: «ما هذا؟» فيجيبونه: «هذا شارع الخيميائيّين»، وذلك بعفويّة وبساطة صادقتَيْن تجعلانه يحسّ أنّه فعلًا في القرن السابع عشر.

هكذا هي براغ: ماضيها لا يبدو منقطعًا عن حاضرها. ففي أزقّة المدينة القديمة يتجاور في المبنى نفسه متجر لبيع الحاسبات الكهربائيّة وحانة عتيقة لاحتساء البيرة عُلّقت فيها لوحات لبيكاسو. يسأل المرء التشيكيّين: «لماذا تعلّقون لوحات بيكاسو في حانة قديمة». فيجيبون: «بعض الناس يحبّون بيكاسو». ليست المفارقات فيها حادّة، وهي مكوّنة من عناصر تراثيّة قديمة وُظّفت برصانة وذوق لا تُرى معهما الخيوط التي تتحكّم بها، مثلما لا تُرى الخيوط التي تتحكّم بالمنظومة كلّها وبالنظام الشيوعيّ، وبالثورة، وبالصناعة -وهي الصناعة الأكثر توازنًا في أوروبّا- أو بالدمى التشيكيّة المتحرّكة التي تُعتبر أحسن دمى في العالم.

أمضينا في براغ عدّة أيّام نتجوّل فيها على غير هدى، ولم نعثر على دليل واضح يسمح لنا بالاعتقاد أنّنا في مدينة من مدن أوروبّا الشرقيّة. ففيها يسود نظام طبيعيّ وعفويّ، خالٍ من مظهر رجال الشرطة المسلّحين. إنّ هذا البلد هو البلد الاشتراكيّ الوحيد الذي لا يبدو فيه أنّ الناس يعانون من التوتّر العصبيّ، ولا يحسّ المرء فيه -وهمًا أو حقيقة- بأنّ الشرطة السرّيّة تتعقّبه.

يصعب هنا العثور على المؤثّرات السوفياتيّة، مع أنّه يُقال إنّ الحكّام التشيك هم أكثر حكّام المعسكر الشرقيّ ولاءً لموسكو. تُرى النجمة الحمراء على القاطرات وعلى المباني العامّة، لكنّها لا تبدو مصطنعة أو زائفة. لم نرَ أيّ جنديّ سوفياتيّ في براغ ولم نلمح فيها أيّ أثر لرخام موسكو أو لإسمنتها القاتل الذي يشوّش الاتّساق العمرانيّ. إنّ لبراغ هويّة محلّيّة خاصّة، بارزة ونابضة بالحياة، تتجلّى في كلّ زاوية من زواياها، وتُبعد عن المخيّلة ذلك الانطباع المتمثّل بالخضوع الرسميّ، الإراديّ، الانبطاحيّ، الذي رأيناه في ألمانيا الشرقيّة أوّلًا، ثمّ تعيّن علينا أن نراه في هنغاريا لاحقًا.

منذ عدّة أيّام وفي فرصوفيا، سأل عمّالُ أحد المصانع الزعيمَ الشيوعيّ البولونيّ غومولكا: «لماذا مستوى الحياة في الديمقراطيّات الشعبيّة أدنى منه في البلدان الرأسماليّة بكثير؟». فأجاب غومولكا: «ليست البلدان الرأسماليّة كلّها تنعم بمستوى أعلى من الديمقراطيّات الشعبيّة. ومن دون شكّ، لا بلدَ من هذه البلدان ينعم بمستوى أعلى من تشيكوسلوفاكيا». ليس بين يديّ معلومات تتيح لي تأكيد ذلك، لكنّ المظهر الخارجيّ للناس، والمشهد العام في الشوارع، يحملان على الاعتقاد أنّ الصوابَ لم يُجانب غومولكا. في تشيكوسلوفاكيا لا يهتمّ الناس كثيرًا بالسياسة، أمّا في الديمقراطيّات الشعبيّة الأخرى فالسياسة شغلهم الشاغل ولا يتحدّثون في أيّ شأن آخر سواها. لاحظنا لدى الطلّاب الذين تمكّنّا من لقائهم انشغالًا كبيرًا بتحصيل المعارف،

ولم نلاحظ لديهم غير القليل من الانشغال بالسياسة. يعبّرون صراحة عن عدم رضاهم عن الرقابة المفروضة على المطبوعات الأجنبيّة وعن العزل القسريّ للبلاد عن بقيّة أرجاء العالم. يعتبر بعضهم -وهم من مشارب سياسيّة واضحة- أنّ الرقابة ضروريّة في الديمقراطيّات الشعبيّة الأخرى، لكنّها غير لازمة على الإطلاق في تشيكوسلوفاكيا. أُتيحَت لنا فرصة التعرّف على مترجم لوركا، وهو مدرّس للإسبانيّة، يبلغ من العمر 35 عامًا، خجول خجلًا مدهشًا، وعصبيّ، لكنّه يتمتّع بثقافة عالية ومعتبرة. ويعرف الأدب الإسبانيّ بعمق، ومهتمّ اهتمامًا خاصًّا بالرواية في أميركا الجنوبيّة. فقد ترجم كتابين من الأدب الكولومبيّ إلى اللغة التشيكيّة، ونفدا من المكتبات تمامًا في غضون أسابيع قليلة: «الدوّامة» لخوسيه أوستاسيو ريفيرا، و«أربع سنوات مبحرًا في أعماقي» لإدواردو سالاميا بوردا، وهذان الكتابان كانا موضوع تعليقاته الشيّقة.

إنّ ردّ فعل الناس في براغ على أيّ مشهد من المشاهد لا يختلف عنه في أيّ بلد من البلدان الرأسماليّة: وهذا الأمر -الذي قد يبدو تافهًا- مثير للاهتمام، ذلك أنّ الناس في الاتّحاد السوفياتيّ يسلكون مسلكًا مغايرًا تمامًا. في براغ وفي موسكو أيضًا أجرينا تجربة الساعة، وهي تجربة بسيطة: قدّمنا أنا وفرانكو ساعتينا بمقدار ستّين دقيقة تمامًا وصعدنا إلى الترام، ثمّ مكثنا واقفين ونحن متشبّثان بقضبان الحافلة، حتّى بدت ساعتانا بوضوح ساطع للآخرين. تطلّع إلينا أحد الركّاب -رجل خمسينيّ، بدين وعصبيّ- بشيء من التململ ثمّ نظر فجأة إلى ساعتي: الثانية عشرة والنصف. جَفَلَ

وهو في مكانه، فأزاح كمّ قميصه من دون تفكير وحدّق في ساعته: الحادية عشرة والنصف. قرّبها من أذنه وتحقّق أنّها تعمل، ثمّ جال حوله بعينيه القلقتَيْن المحزونتَيْن، بحثًا عن ساعة أخرى أقرب إليه، فوقعتا على ساعة فرانكو وكانت تشير إلى الثانية عشرة والنصف أيضًا. نهض الرجل من مكانه مسرعًا فشقّ طريقه مزاحمًا الركّاب، ثمّ ترجّل من الحافلة قبل أن تتوقّف تمامًا واختفى وهو يقفز وسط الجموع.

في باريس وفي روما لا يختلف ردّ فعل الناس عنه في براغ. أمّا في موسكو، فلقد وضعت الساعة في معصمي في الأوقات كلّها ومشيت بها في الأمكنة كلّها، فكان الناس يقتربون منّي ويتفحّصونها بفضول لا مثيل له، فتمكنّا بذلك من أن نعرف أنّ تصنيع الساعات في الاتّحاد السوفياتيّ نادر جدًّا ولا يستعملها إلّا القليل من الناس. لم يكن يلفت أنظارهم في ساعتينا إلّا مظهرهما البرّاق وشكلهما ونوعيّتهما، ولا أظنّ أنّ أحدًا منهم خطر في باله أن يعرف كم الساعة فيها. إنّ المواطنين السوفيات يدفعون أيّ شيء يُطلب منهم مقابل الحصول على ساعة من ساعات اليد. في حافلات الترام في براغ، يعيش الناس همومهم اليوميّة الصغيرة: يتظاهر الرجال بعدم رؤيتهم للسيّدات حتّى لا يتخلّوا لهنّ عن مقاعدهم، وترتبك السيّدات وهنّ يبحثن عن النقود في محافظهنّ ولا يضغطن مفتاح طلب توقّف الحافلة في الوقت المناسب، فيشتمن السائق. في موسكو ليس لدى الناس الفضول العفويّ باسترق النظر لقراءة الجريدة من فوق كتفيّ الراكب الجالس أمامهم: لا أحد يتابع أخبار

الصحف، فهي لا تستثير أحدًا ولا تستفزّه كلّ يوم كما هو الحال في الغرب. إنّ سكّان موسكو -الثرثارون والمحبّون للكلام في الشارع- يركبون المترو بالورع نفسه الذي تركب به السيّدات في الغرب الحافلة السماوية للمشاركة في قدّاس الساعة الخامسة في الكنائس.

في تشيكوسلوفاكيا يلفت النظر مشهد مثير للإعجاب ومختلف عن كلّ ما شاهدتَه من قبل: العسكريّون. من المدهش أن يرى المرء كيف أنّهم مندمجون في الحياة المدنيّة لبقيّة الناس. ففي محطّة القطار يصطفّون بالدور كي يشتروا التذاكر، ويتشاجرون مع المدنيّين من أجل مقعد في العربة وهم محمّلون بالحقائب والحوائج، ويحجزون المقاعد بقبّعاتهم ريثما يأخذون الأطفال للتبوّل في المرحاض. لا يبدو أنّهم عسكريّون بل مدنيّون يلبسون لباس العسكر، إذ يتجوّل أحدهم في أسواق براغ مع زوجته حاملًا طفله الرضيع على ذراع، وعلى الذراع الأخرى الكيس الذي يحوي الحفّاضات وال»بيبرونة». رأيت بأمّ عيني ضابطًا يحمل في كفّه قبعته المليئة بالبندورة، وهو ينتظر أن تفتح زوجته سحّاب الكيس كي يفرغها فيه. ورأيت ضابطًا آخر وقد أجلس ابنه على كتفَيْه كي يشاهد من فوق رؤوس الحشود واجهة أحد محلّات الدمى. ربّما يعتقد المرء أنّ في ذلك قلّة احترام للمهنة، لكنّه على الأرجح دليل شجاع على كرامة الإنسان.

وبعد أن جلنا في تشيكوسلوفاكيا بجهاتها الأربع، وبحرّيّة مطلقة، صار لديّ انطباع أنّه ما من شيء يلفت الأنظار في الأجنبيّ

الذي يمرّ بها غير بنطلونه المصنوع من الجينز الأزرق. كان الناس يتوقّفون ليضحكوا منّا علنًا، وهم يسألوننا من أيّ كوكب هبطنا، بسبب هذا الجينز الذي نرتديه. لا يلبس التشيكيّون ملابس جيّدة وحسب، بل يُلحظ لديهم اهتمام واضح بها وبارتدائها، ولقد رأيت الكثير من النساء اللواتي يلبسن ملابس جميلة مثلما في باريس تمامًا. إنّ الأجنبيّ الذي يلبس ثيابًا عاديّة في تشيكوسلوفاكيا يمرّ من دون أن يلحظه أحد. وهذا أمر لا يحدث في الاتّحاد السوفياتيّ ولا في الديمقراطيّات الشعبيّة الأخرى، حيث يتعيّن على المرء أن يلبس ثيابًا عتيقة وبالية وسيّئة الصنع جدًّا، حتّى لا يلفت الانتباه ويضيع بين الناس.

بقي فرانكو في براغ لأنّه -في القنصليّة البولونيّة- لم يجد أيّ وسيلة لتبرير رحلته إلى فرصوفيا. واتّفقنا على أن نلتقي لدى عودتي من فرصوفيا كي نسافر معًا إلى موسكو. وفي فرصوفيا، أعتقد أنّني افتقدت كثيرًا قدرته الفائقة على الملاحظة. رافقني في عربة القطار فلّاح عجوز ومعه عائلته بأكملها -زوجته وأولاده الثمانية وأولاد أخيه الثلاثة وخنزير صغير عمره بضعة أيّام. وهم دون سواهم شغلوا المقصورة بكاملها. روى لي العجوز قصّة حياته برسومات رسمها بإصبعه على زجاج النافذة، ففهمت أنّه يعيش في بيت واسع جدًّا على مسافة ساعات قليلة من الحدود البولونيّة.

لا تخضع الأراضي في هذه الناحية من البلاد إلى النظام التعاونيّ، فالإنتاج فيها فرديّ، لكنّ الدولة تقدّم الآلات للفلّاحين وتشتري منهم المحاصيل. دعاني الفلّاح العجوز إلى زيارته في

بيته أثناء عطلة أعياد الميلاد لنأكل لحم الخنزير معًا. وعندما نزل من القطار -في محطّة فقيرة، لكنّها شديدة النظافة- حذّرني من النافذة أن أنتبه إلى جواز سفري: إنّ البولونيّين يحاولون السطو على الجوازات الأجنبيّة كي يفرّوا بها خارج البلاد.

كان عدد الركّاب يتناقص، كلّما اقتربنا من الحدود البولونيّة. وعند حلول الظلام وجدت نفسي في القطار وحيدًا تمامًا. تمدّدت في المقعد كي أنام، لكنّ المفتّش التشيكيّ أيقظني كي يطلب منّي تذكرة السفر. وبعد أن تفحّص وجهي وتمعّن فيه أخذ يحدّثني بالإيطاليّة. كان قد عاش في ميلانو أثناء الحرب، وتزوّج فيها، واليوم لديه أربعة أولاد يتحدّثون التشيكيّة والإيطاليّة بالطلاقة نفسها، اثنان منهما الآن في ميلانو يقضيان العطلة، والآخران في مخيّم صيفي من المخيّمات التي تقيمها الدولة. ولمّا لم يكن لديه ما يفعله، اشترى من المحطّة التالية دزّينتين من زجاجات البيرة واستمرّ يروي لي قصّة حياته حتّى الحدود. سألتُه إن كان راضيًا عن الأوضاع في بلده، فابتسم مظهرًا أسنانه المذهّبة وقال لي حرفيًّا: «نحن هنا جميعنا شيوعيّون، هل تفهم؟». حذّرني هو الآخر أيضًا بشكل عفويّ -وهذا أمر أقلقني- أن أنتبه إلى جواز سفري في بولونيا، إذ قال موضحًا: «البولونيّون ليسوا شيوعيّين. هم يقولون عن أنفسهم إنّهم شيوعيّون، لكنّهم لا يفوّتون قدّاس يوم الأحد».

هذه المرّة أيضًا تعيّن علينا أن ننتظر عند الحدود أربع ساعات، وكان ذلك أمرًا باعثًا على القنوط: في أوروبّا الغربيّة لا ينتبه المرء إلى الحدود إلّا عند تغيّر اللغة على اللافتات، فالقطارات لا تتوقّف

عندها أبدًا. لا يحتاج الأوروبيّون في الغرب لتأشيرات الدخول إلّا إلى عدد قليل من البلدان، بل إنّ الفرنسيّين يستطيعون دخول يطاليا بالبطاقة الشخصيّة ومن دون جواز سفر. أمّا وراء الستار الحديديّ، فإنّ عبور الحدود هو حدث عظيم؛ إذ يجب التصريح عن الأموال المحمولة عند دخول البلد، وعند الخروج منه يجب تقديم ما يثبت تصريف العملة كي تتأكّد السلطات أنّ الزائر لا يضارب بلعملة الأجنبيّة. ومع أنّ هذه الإجراءات لا تستغرق أكثر من عشر دقائق، فالقطارات تتوقّف ساعتين في المحطّة الأخيرة من بلد الدوم، ثمّ تعبر الحدود تحت حراسة عسكريّة، فتعود وتتوقّف ساعتين أخريَيْن في المحطّة الأولى من بلد الوصول.

في مركز الحدود البولونيّة، لا بدّ وأنّ موظّفي الجمارك أدركوا أنّ تأشيرتي هي تأشيرة خاصّة -أمر كنت أجهله- لأنّهم طلبوا منّي ما يثبت دعوتي إلى مؤتمر السينما. أخذوا مستنداتي كلّها وغابوا. وبعد لحظات أتاني ضابط يتحدّث الفرنسيّة، فنقلني إلى عربة بولونيّة. اعترضت على ما قام به، لأنّ العربات البولونيّة أسوأ العربات في أوروبّا كلّها. أوضح لي الضابط أنّ تبديل العربة إجباريّ ولا مفرّ منه، ثمّ سجّل رقم المقعد الذي جلست فيه ولمّا ودّعني نبّهني قائلًا:

- لا تتحرّك من هذا المقعد. وعند وصولك إلى فرصوفيا، ابقَ حيث أنت وانتظر حتّى ينزل الجميع من القطار!

أثناء الليل، أيقظتني حركة المسافرين عدّة مرّات وهم يرتّبون متاعهم ويبحثون عن مقاعدهم من دون أن يشعلوا النور. وعند

الفجر، امتلأت عربة الدرجة الأولى بأناس يرتدون ملابس كمسافري الدرجة الرابعة، وغصّت الرفوف بالحقائب والأكياس المربوطة بالحبال. ومنذ أن أشرقت الشمس، قبل الرابعة صباحًا، بدأ معظمهم بالمطالعة، من بينهم مسافران -رجل وامرأة- يقرآن لجاك لندن. تفحّصت إحدى النساء ساعتي بإلحاح وفضول، وكانت ترتدي بدلة رسميّة من نوعيّة جيّدة لكنّها بالية من كثرة الاستعمال، وتعتمر قبّعة مثل سيّدات الإغراء في السينما الصامتة، غاصت في رأسها حتّى رموشها. ثمّ انتبهتُ إلى أنّها لم تكن وحدها في ذلك، بل إنّ الناس الذين يطالعون أيضًا كانوا يهملون كتبهم لحظات ويتفحّصون الساعة.

قرابة الساعة الثامنة، فتح المسافرون أكياس الفطور: خبز أسمر ونقانق وفاكهة. وبعضهم فتح المعلّبات. لم يكن لديّ زاد ولا عملة بولونيّة، فحضرت حفلة الفطور الجماعيّ تلك، وأنا راغب رغبة عارمة في ألّا أكون في بولونيا بل في إيطاليا حيث يتقاسم مسافرو الدرجة الثالثة الطعام مع رفقاء السفر. أخذ المسافرون البولونيّون يأكلون طعامهم بصمت وهم يرفعون رؤوسهم كي يمضغوه، ويحدّقون في ساعتي كمن يشاهد فيلمًا باستغراق وشرود معًا. أخفيت عدم ارتياحي بأن ألتفت بنظري صوب الحقول، فبدت غاية في الفقر وشديدة الاختلاف عنها في تشيكوسلوفاكيا. والآلات الزراعيّة فيها قليلة وقديمة جدًّا، وكثير من الفلّاحين -معظمهم نساء- يشتغلون في الأرض بأساليب بدائيّة. قبل أن نصل إلى فرصوفيا وبغير مناسبة، سألتني المرأة التي تعتمر القبّعة إن كنت

أتحدّث الفرنسيّة. أجبتها بنعم، وكان صوتي حدَثًا مهمًّا في العربة، إذ أغلق الجميع الكتب والتفتوا إليّ. لم يكن في نظراتهم أيّ شيء يدلّ على العداوة، بل فضول يشوبه شيء من القلق. سألتني السيّدة عن جنسيّتي. لا أعرف إن كان البولونيّون يكنّون تقديرًا خاصًّا لنا، نحن سكّان أميركا الجنوبيّة، أم إنّهم مقتنعون بأنّنا نتضوّر جوعًا، لكنني أعرف أنّ ردّ فعلهم جميعًا كان نفسه حينما كشفت لهم عن جنسيّتي: فتحوا أكياسهم وأغرقوني بالطعام بكرم زائد، مؤثّر في النفس. ترجمت لي السيّدة التي تعتمر القبّعة سؤالًا من الرجل الذي كان يقرأ كتابًا لجاك لندن:

– هل أنت غنيّ؟

ترقّب الآخرون الجواب. ولمّا جاءهم جوابي بالنفي، لم تبدُ ملامح الخيبة على وجوههم، بل ملامح عدم التصديق. أصرّت المرأة على أنّني وبلا ريب ثريّ ثراء طائلًا، فأنا ألبس ساعة ذهبيّة. أوضحت لها أنّ الساعة مطليّة باللون الذهبيّ طلاء وحسب. وحتّى أثبت ذلك للجميع، خدشتُ الطلاء الذهبيّ بالسكّين، لكنّهم بدوا غير مقتنعين. كان الحوار معهم ودّيًّا للغاية، مع ذلك لم أتمكّن من تحديد اللحظة التي زلّ فيها لساني وارتكبت خطأً أثناء كلامي. ففي لحظة ما انفضّوا عنّي وبدأوا يتحدّثون مع بعضهم. كنت متعبًا قليلًا من وعكة البيرة، ولا أتذكّر بالضبط ما قلته، لكنّي أعرف أنّهم أهملوني فجأة، بل وبدوا عدوانيّين تجاهي. لم يعودوا يوجّهون لي الكلام في ما تبقّى من الرحلة، ما عدا كلمة واحدة سمعتها في محطّة القطار عند وصولنا إلى فرصوفيا. شرعوا يرمون حقائبهم

من النافذة، أمّا أنا فظللت جامدًا بلا حراك تنفيذًا لتعليمات موظّف الجمارك. لم يكن بحوزتي أيّ عنوان أذهب إليه، فخطر في ذهني أن أنزل وأدخل أوّل فندق أعثر عليه، ثمّ أبحث بعدها عن منظّمي المؤتمر. دُهشَت آخر صبيّة غادرت العربة لثباتي في مكاني وقالت لي بغضبٍ جملة بالبولونيّة، لم أستطع أن أفهم منها إلّا كلمة واحدة: *فرسافا*.

قلت لها -بالإشارة- إنّني أعرف أنّنا في فرصوفيا، لكنّه يجب عليّ أن أبقى في مقعدي. عادت وقالت لي جملة أخرى بغضبٍ أيضًا، فهززتُ بكتفيّ، وفعلتْ هي الشيء نفسه تمامًا. وحينما خرجَتْ، فتحتْ باب المقصورة بعنف.

حتّى إذا فرغ القطار من ركّابه، جاءني إلى مقعدي، حيث أجلس، شابّ بولونيّ، أشقر، نظيف الهيئة، يرتدي ثيابًا على الطراز الإيطاليّ. حيّاني بإسبانيّة ممتازة فيها نبرة أرجنتينيّة خفيفة. كان اسمه آدم فاكلافيك، وهو مسؤول عن شؤون أميركا الجنوبيّة في إحدى صحف فرصوفيا. كانت بياناتي الشخصيّة قد أُرسِلت إلى فرصوفيا من الحدود، وبناء عليها لا بدّ أنّ المسؤولين اعتقدوا أنّ هذا الصحافي البولونيّ الذي عاش وقتًا طويلًا في الأرجنتين، ويعرف الأوضاع في أميركا الجنوبيّة عن ظهر قلب، هو خير مترجم لصحافيّ قادم من تلك البلاد.

قادني إلى الفندق، ومن خلال نافذة السيّارة رأيت مدينة متواضعة، فيها مساحات ممتدّة، خالية من البناء، لكنّها تعجّ بالناس. رأيتُ كلّ شيء حولي في فرصوفيا جافًّا وقاسيًا، لكنّه

بدا لي -لا أعرف لماذا- أنّ السماء أمطرت على المدينة لسنوات طويلة من دون توقّف. عندما مررنا أمام قصر الثقافة -بناء كقالب الحلوى المزيّن بالكريما، ومكوَّن من 36 طابقًا- قال لي آدم بنيّة مبهمة: «إنّه هديّة من الاتّحاد السوفياتيّ». لا أزال أجهل حتّى الآن إن كان ما قاله اعتراف بالجميل أم اعتذار. وبعد قليل، بدا أمامنا بناء بيضاويّ الشكل، مكوّن من خمسة طوابق، وهو البناء الوحيد الذي تُرى صورته في عربات القطارات كلّها، وفي القنصليّات الغربيّة.

«إنّه مخزن تجاريّ من مخازن الدولة»، أخبرني المترجم بعفويّة.

راودني انطباع أنّه يعاني ويتعذّب، فعلى الأقلّ في المنطقة التي عبرناها لم أرَ ما يستحقّ المشاهدة أو يلفت النظر، إذ لم يكن فيها غير قفر وكآبة مؤلمَيْن. «إنّها مدينة جميلة»، قلت من دون أن أعرف لذلك سببًا سوى يقيني بأنّني لم أعد أستطيع تحمّل معاناة آدم فاكلافيك، الصامتة.

«غير صحيح. بل إنّنا لا نستطيع حتّى الآن أن نسمّيها مدينة»، قال. ثمّ حدّثني عن إعادة إعمار المدينة، لأنّ النازيّين لم يتركوا فيها حجرًا على حجر. لا بدّ من الاعتراف بأنّ الحظّ لم يحالف آدم فاكلافيك هذا الصباح، فالطريق المؤدّية من المحطّة إلى الفندق هي بالتحديد الأقلّ نصيبًا من إعادة الإعمار.

في فندق البريستول حُجزت لي غرفة، وتُرك لي في إدارته مغلف فيه مبلغ 300 زلوتي. لم أكلّف نفسي عناء الحساب والتأكّد كم يعادل المبلغ من الدولارات، لكنّه كفاني وبشكل مريح لنفقاتي المتواضعة طوال إقامتي في بولونيا. أوصلني آدم فاكلافيك إلى

الغرفة، وأعطاني بعض التعليمات الأوليّة، ثمّ أخبرني أنّه سيعود ليأخذني بعد الغداء. راودني انطباع أنّ هذا المترجم مكلّف بمراقبتي، إذ كان كلّ شيء يسير بإتقان مريب، ولربّما كان انطباعي هذا عائدًا لوعكة البيرة التي شربتها في القطار. بدّلت ملابسي على عجل وغادرت الفندق بغية استكشاف فرصوفيا بنفسي وعلى مسؤوليّتي الخاصّة.

-6-

بعيون يقظة على بولونيا وهي تغلي

علِقت بذاكرتي لبعض الوقت صورة عن فرصوفيا، أرى فيها حشود الناس يمشون وراء بعضهم بانتظام كقافلة من الهنود الحمر الذين يجرّون معهم أدوات المطبخ، والعلب الفارغة، وكلّ صنوف الأواني المعدنيّة التي تُحدِث على الرصيف قرقعة حادّة ومستمرّة. فيما بعد، وجدت لنفسي تفسيرًا موضوعيًّا لتلك الصورة المزعجة: ليس في فرصوفيا إلّا القليل جدًّا من السيّارات، وبذا فإنّ جادّة مارشالكوفسكا العريضة، المشجّرة، تغدو بأكملها ملكًا للمشاة حينما لا تمرّ فيها حافلات الترام القديمة المرمّمة، مترنّحة من كثرة الركّاب. إلّا أنّ الحشد الغفير، الرثّ الثياب، الذي يمضي في تأمّل واجهات المحلّات وقتًا أطول من وقت الشراء، يظلّ على عادته ولا ينفكّ يمشي على الرصيف. إنّ انطباعي إذًا بأنّ الناس يمشون في قافلة كالهنود، نابع من كونهم لا ينزلون إلى الشارع الخالي تمامًا من ضجيج الزمامير والمحرّكات، وصراخ الباعة، ولا يتفرّقون فيه أبدًا. وهكذا لا يُسمع في أرجائه غير همهمة الحشد صافيةً، فتبدو مثل قرقعة مستمرّة لأدوات المطبخ، والعلب الفارغة، وصنوف الأواني المعدنيّة كلّها التي تحملها معها قوافل الهنود الحمر.

في بعض أحياء المدينة يتبدّد هذا الانطباع بسبب الشاحنات

المزوّدة بمكبّرات الصوت التي تبثّ الموسيقى الشعبيّة، لاسيّما -مرّة أخرى- أغاني أميركا الجنوبيّة. لكنّ هذه البهجة القسريّة المفروضة بالمراسيم، لا تنعكس على الوجوه. والمرء يدرك منذ اللحظة الأولى أنّ الحياة هنا قاسية، وأنّ الناس عانوا كثيرًا من الكوارث العظيمة، وأنّ هناك مأساة على مستوى البلاد، تسبّبها المشكلات المحلّيّة الصغيرة. تبدو المتاجر هنا فقيرة بالمعروضات كما في ألمانيا الشرقيّة، باستثناء المكتبات، فهي أكثر المحلّات حداثة وترفًا ونظافة وازدحامًا. إنّ فرصوفيا مليئة بالكتب وأسعارها منخفضة للغاية، وهناك كاتب يحظى فيها بتقدير عالٍ هو جاك لندن. وفي المدينة قاعات للمطالعة تغصّ بالروّاد وتستقبلهم منذ الساعة الثامنة صباحًا، لكنّ البولونيّين لا يكتفون بارتيادها وحسب، بل يملأون بالقراءة كل الفراغات في حياتهم اليوميّة. ففي الطوابير التي تتشكّل بانتظار الترام -والتي تُرى طول النهار- أو في تلك التي تمتدّ طولًا لشراء الحاجيّات الأساسيّة، يطالع البولونيّون الكتب والمجلّات وكرّاسات الدعاية السياسيّة الرسميّة، باستغراق فيه شيء من التعبّد.

لم أستطع أن أفهم ما يفعله هؤلاء الناس كلّهم في الشوارع. من الثابت أنّ البطالة ليست مشكلة في بولونيا، لكنّ الناس تمضي حياتها كاملة وهي تتأمّل واجهات المحلّات. تعرض متاجر الدولة بضائع جديدة لكنّها تبدو قديمة، وأسعارها مرتفعة، فيتجمّع الناس عند الأبواب قبل أن تُفتح للعموم.

بعد أن أمضيت عدّة ساعات تائهًا بين الزبائن المتزاحمين في

أفخم متجر من متاجر فرصوفيا، وأنا أصعد السلالم المتحرّكة وأهبطها، أستطيع القول إنّ الناس يجوبون المتجر بكامله ثمّ يخرجون فارغي الأيدي. وذلك، كما لو أنّ فعل تحقّقهم من أنّ ما لديهم من المال لا يكفي لشراء شيء، هو أيضًا طريقة في التسوّق.

يرى المرء الرهبان والراهبات في الشوارع بين الناس بنسبة ملحوظة كما في روما، ويصادفهم في كلّ مكان: في المحاضرات السياسيّة، وفي الاجتماعات الثقافيّة، أو في المكتبات وهم يقلّبون صفحات إحدى المجلّات التي وُسم غلافها بصورة لستالين بشاربَيْه الرهيبَيْن. في جادّة مارشالكوفسكا فوجئتُ بتمثال للمسيح تُوّج رأسه بمصابيح كهربائيّة، وعند قدميه اتّقد مصباحان يعملان على الزيت. كان بعض المارّة يتوقّفون أمامه ويرسمون إشارة الصليب. فيما بعد، تعيّن عليّ أن أتعوّد على هذه التماثيل الدينيّة المغروسة غرسًا في قلب عاصمة من عواصم المنظومة الاشتراكيّة. هناك تماثيل للعذراء صُنعت حديثًا، وأوّل المباني التي أُعيد إعمارها هو الكاتدرائيّة. إنّ الكنائس مفتوحة طول اليوم، ومن الشارع يمكن للمرء أن يرى فيها ناخبي الأمين العام للحزب الشيوعيّ، فلاديسلاف غومولكا، ساجدين وأذرعتهم مبسوطة أمام المسيح. في ختام زيارتنا السياحيّة لكاتدرائيّة فرصوفيا، رأينا امرأة عجوزًا تصلّي بصوت عالٍ أمام المذبح الكبير، فنهضتْ عند مرورنا وطلبَتْ منّا صدقة. يتعيّن عليّ أن أشير هنا إلى أنّها المتسوّل الوحيد الذي رأيته وراء الستار الحديديّ.

إنّ المشهد العام هو مشهد الفقر المدقع، وهو أكثر إدهاشًا منه

في ألمانيا الشرقيّة أو هنغاريا. ولكنْ هناك نقطة تُسجّل لصالح البولونيّين: فبعد أن تعرّضوا للحرمان الطويل، ودمّرتهم الحرب، وأُجهِزَ عليهم بمتطلّبات إعادة الإعمار وأخطاء حكّامهم، فإنّهم يحاولون الاستمرار بالعيش بشيء من الكرامة والكبرياء. إنّهم متعَبون، لكنّهم ليسوا منكسرين. إنّهم فقراء فقرًا لا يمكن وصفه، لكنّه من الجليّ أنّهم يواجهون فقرهم بتحدٍّ لا نراه على الأقلّ بوضوح في ألمانيا الشرقيّة. يحتفظ البولونيّون تحت ثيابهم القديمة وفي أحذيتهم البالية، بعزّة نفس تبعث على الاحترام.

لقد كانت إعادة إعمار فرصوفيا إنجازًا وطنيًّا عزّ نظيره في الماضي. إنّ الغيتو اليهوديّ اليوم ساحة مقفرة وجرداء، ممسوحة مسحًا كطاولة الجزّار، وهكذا كان مركز المدينة في صباح اليوم الذي حُرّرت فيه. لم تُزَل المباني عن وجه الأرض وحسب، بل أزيل منها البولونيّون أنفسهم أيضًا. ومَنْ ظلّوا في تلك المدينة التي لم يتبقَّ فيها حجر على حجر، أصرّوا -بمعاونة من عادوا لاحقًا- على إعادة إعمارها حجرًا حجرًا أيضًا، وقد فعلوا ذلك بروح من العنفوان والتحدّي، وبالبسالة الرمزيّة نفسها التي واجه بها سلاح الفرسان البولونيّ دبّابات هتلر بالرماح. كان أوّل ما فعلوه إعادة تصميم المدينة على الورق استنادًا إلى المخطّطات والصور والوثائق التاريخيّة. وقد أشرفت لجنة من المتخصّصين الأكاديميّين على التحقّق من أصالة إعادة الإعمار، حتّى تكون المدينة الجديدة مطابقة للقديمة. ومن أجل إعادة إعمار الأسوار التي تعود إلى العصر الوسيط، كان لا بدّ من تصنيع نوع خاصّ من الطوب، ضاعت وصفة تصنيعه منذ قرون.

إنّه لغريب ذلك الأثر الذي تتركه في النفس هذه المدينة التي أُعيد إعمارها نقلًا عن الصور. في أزقّة القرون الوسطى تفوح رائحة الطلاء الطريّ، فالواجهات التي عمرها 400 عام لم ينتهِ ترميمها بعد. وعلى السقالات دهّانون من مواليد العام 1925، تَعيّن عليهم أن يبتكروا من جديد تقنيّات وخلطات منسيّة، كي يعيدوا طلاء واجهات ينبغي لها أن تبدو بعمر 300 عام عند الصباح. لقد أُنجزت هذه المهمّة الجبّارة على حساب الخبز والحذاء.

ضمن نسيج الوحدة العمرانيّة لفرصوفيا، تبرز علامة شاذة: مبنى قصر الثقافة. وهو هديّة من الاتّحاد السوفياتيّ، مطابق تمامًا في تصميمه لوزارة التربية والتعليم في موسكو. هذا العمل سوف يؤدّي بالبولونيّين -لا يمكن التحدّث معهم عن الروس لأنّهم ينفلتون مطلقين السباب واللعنات- إلى تلغيمه وتفجيره في يوم من الأيّام. يقال إنّ ستالين عمّره هنا، من دون استشارة الرأي العام البولونيّ، وذلك شكرًا للحكّام الذين أطلقوا اسمه على أكبر ساحة من ساحات المدينة. اليوم، تسمّى الساحة بساحة الثقافة، لكنّ القصر لا يزال فيها، جاثمًا لا يتزعزع بمظهره الستالينيّ وبالنجمة الحمراء في أعلاه. في ذلك المبنى المهزلة، الواسع والفارغ من أيّ معنى، حيث يضيع المرء بسهولة كما في كاتدرائيّة القديس باسيلوس في موسكو، خُصّصت قاعات للمحاضرات، ودور للمسرح، وأخرى للسينما، ومقرّات لمنظّمات ثقافيّة. في كلّ ليلة من ليالي السبت الصيفيّة، تجهّز السلطات الرسميّة المكان بمجموعة من مكبّرات الصوت، ويُبثّ منها سيل من موسيقى الجاز، فترقص على أنغامه

الشبيبة حتّى الصباح. «إنّ جهودنا كلّها ذهبت هباءً، فهذا القصر أحدث فجًّا عميقًا في تراث مدينتنا المعماريّ»، قال لي أحد معلّمي التاريخ الذين شاركوا في إعادة الإعمار.

يرفض بعض البولونيّين حتّى مجرّد الاعتقاد بأنّ القصر كان هديّة، بل يرون أنّه من عمل الحكّام السابقين، تملّقًا لستالين. ومن يسلّمون بأنّه هديّة، يجدون فيه سببًا آخر للسّخط على الروس: عندما بُني قصر الثقافة، كان البولونيّون يعيشون كالجرذان بين أنقاض المباني المدمّرة. ولا يستوعب المرء لِمَ قدّم الاتّحاد السوفياتيّ هذه الهديّة العالية الكلفة والعديمة الفائدة، في الوقت الذي كانت فيه بولونيا تعاني -ولا تزال- من قلّة المساكن. منذ أن تولّى غومولكا زمام السلطة وبدأ البلد ينعم بحرّيّة التعبير، انطلقت حملة شعبيّة مناهضة لفكرة بناء قصر الثقافة، وهي لا تزال مستمرّة. منذ أسابيع قليلة، سُئِل غومولكا في إحدى التظاهرات: «هل قصر الثقافة حقًّا هديّة من الاتّحاد السوفياتيّ؟». كان الزعيم الشيوعيّ يحبّذ عدم الاقتراب من الموضوع، لكنّه أجاب: «نعم، إنّه هديّة حقًّا». ولكي يستبق أيّ تعليق خبيث، أردف قائلًا:

- إن الهديّةَ هديّةٌ على أيّ حال، ولا ينبغي أن ندقّق في معايبها.

ذات مساء، وجدت في الفندق رسالة من آدم فاكلافيك. ولا بدّ أنّني أسأت فهمها، إذ ظننت أنّها دعوة إلى إحدى المحاضرات. لم يكن أمامي وقت كافٍ لتناول الطعام، فأخذت سيّارة تاكسي على عجل، وأريت العنوان للسائق، فقادني من دون أن أيّ تعليق، وحطّ

بي أمام مبنى شحيح الإنارة، تحيط به الأشجار من كلّ صوب ويقع على أطراف فرصوفيا. دخلت وإذا به حفل استقبال رسميّ، وأنا كنت بالجينز الأزرق، لكنّي لم أنشغل لهذا التفصيل البورجوازيّ الصغير، لأنّني كنت قد سمعت من قبل أنّه بوسع المرء أن يحضر الحفلات الرسميّة في الديمقراطيّات الشعبيّة بأيّ ملابس يشاء. منذ ثلاث سنوات وفي مهرجان البندقيّة، دعا وفد الاتّحاد السوفياتيّ الصحافيّين لحضور حفل استقبال في فندق إكسلسيور، ومَن أتى منهم بغير اللباس الرسميّ، رَفَضَ إدخالَه بوّابٌ يرتدي زيّ خدم الأمراء. «عندما تذهبون إلى حفل استقبال في موسكو، بوسعكم المجيء بأيّ لباس تشاؤون»، قال لنا أحد أعضاء الوفد السوفياتيّ، ثمّ أردف: «هنا، في هذا البلد، يفرضون الزيّ الرسميّ على المدعوّين، ونحن نحترم عاداتهم». في فرصوفيا لا تُتَّبع حرفيًّا هذه القاعدة التي خلَطتُها أنا في ساعة نحس بمبدأ عقائديّ. ارتدى الرجال جميعهم بدلات سوداء، أمّا النساء فقد ارتدين ملابس نُسخت موديلاتها عن مجلات الأزياء الفرنسيّة، وأفرغنَ على أجسادهنّ صناديق مجوهراتهنّ.

لم يكن لديّ الوقت كي أعود إلى الفندق لأبدّل ملابسي. ثمّ إنّ آدم فاكلافيك أصرّ على عدم أهميّة الموضوع، فجلست مع المدعوّين الآخرين إلى طاولة كبيرة غصّت بأطباق الطعام، إضافة إلى عدد كبير من زجاجات الفودكا البولونيّة الجهنميّة، تلك التي تبلغ درجة الكحول فيها 46 درجة. كان الرجال يقبّلون أيدي السيّدات عند تحيّتهم لهنّ، ومن طريقة مدّهنّ لأيديهنّ أدركت

أنّهنّ ينتظرن منّا نحن الأجانب أن نقبّلها أيضًا. حتّى البولونيّين كانوا بينهم يتحدّثون بالفرنسيّة، ولاحظت أن مواضيع أحاديثهم لم تكن عفويّة، بل بدا كما لو أنّ كلًّا منهم مهتمّ بشكل أساسيّ بأن يُظهر للآخرين أنّ فرنسيّته أفضل، وأنّه يتقن باقتدار أكثر ضروب المحادثة تنميقًا.

في هذا الجوّ الأرستقراطيّ السقيم، تنبّهت بعد قليل إلى جانب ديمقراطيّ فيه: سائقو السيّارات الرسميّة حاضرون في الحفل أيضًا. انزووا في ركن من الصالة ولم يختلطوا ببقيّة الحضور، فذهبت إليهم، لا لأنّني أعترض على عادة البولونيّين في تقبيل أيدي السيّدات، إنّما لأنّني أحسست بارتكابي فعلًا في غير محلّه إذ أفعل ذلك وأنا بالقميص والجينز الأزرق. كان السائقون يرتدون ملابس مثل ملابسنا جميعًا، نحن السائقين في هذا العالم، فأحسست بالانتماء إليهم، حتّى إنّني تحدّثت معهم بطلاقة، بتلك المفردات البولونيّة البسيطة، السهلة، التي يستطيع أيّ امرئ أن يتحدّثها بعد الكأس الثالثة من الفودكا.

ولمّا تصاعدت أبخرة الكحول واشتدّ تأثيرها على الحاضرين، اختلطوا ببعضهم، فقبّل السائقون أيضًا أيدي السيّدات. وحتّى أنا لم أستطع الإفلات من ذلك. فيما بعد، كان لا بدّ أن أنتبه إلى أنّ هذه العادة التي أعتبرها عادة كريهة من عادات المُجرّدين من المِلكيّة، لا تزال تحتفظ بها جميع فئات الشعب في بولونيا. إنّ الاشتراكيّة -التي منحت الجميع الحقوق نفسها- لم تفعل شيئًا سوى توسيع الإمكانيّات: صار بوسعنا الآن، نحن السائقين، أن

نقبّل أيدي السيّدات أيضًا. لا يمكن لي أن أنسى حيرة الكولونيل ويبس، مبعوث مكتبة الكونغرس في واشنطن -وهو أميركيّ أبيض، فضّيّ الشعر، يتميّز بحسّ عمليّ، إذ كان لا يسافر إلّا ومعه غياران من الملابس الداخليّة المصنوعة من النايلون يحملها في حقيبة صغيرة وُسِمَتْ بالأحرف P.A.A- فقد اقترب منّي في لحظة ما وقال: «لو كنت أعلم أنّه حفل لتقبيل أيدي السيّدات وحسب، لتمارضت بالتهاب القصبات ولازمت الفراش».

مع ذلك، فقد بدا لي أن هذا التمازج الغريب بين المجوهرات والمحرّكات الانفجاريّة، لا يمكن له أن يحدث في بولونيا قبل الكأس الثالثة من الفودكا. إنّ أبناء الطبقة الأرستقراطيّة القديمة الذين لا يزالون يعيشون في كراكوفا -مدينة محافظة ومتشدّدة- يحتمون من المدّ الصاعد للبروليتاريا ببقائهم في مساكنهم الخاصّة. يتعاون بعضهم مع النظام، ويحضرون حفلات الاستقبال الرسميّة، لكنّ الاستياء يرتسم على وجوههم فعلًا حينما يصادفون فيها وزيرًا كان ابن حذّاء في زاكوبان، أو حينما يلتقون بمسؤول صناعيّ أخرجته إحدى الرافعات من قعر أحد المناجم. فالبروليتاريا، من جهتها، لم تتمكّن حتّى اليوم من أن تتغلّب تغلّبًا كاملًا على إحساسها بالخجل أمام هؤلاء.

ليس مطعم فندق البريستول بمطعمٍ غالٍ على العمّال المتخصّصين. مساء يوم السبت، يجلسون فيه إلى إحدى الطاولات مع نسائهم المرتديات ملابس ورديّة برّاقة، ويحارون فيما هم فاعلون بأيديهم. أحيانًا، يشغلونها بالنقر على الطاولة ومرافقة إيقاع

الفالس الذي تعزفه فرقة موسيقيّة ارتدت حلّة المساء. يلحظ المرء أنّهم غير مرتاحين، وأنّ هذا الجوّ الرسميّ لا يعجبهم، ويجفلون إذا ما دوّى في الهواء صوت سدادة من سدادات زجاجات الشمبانيا. يبتسم من سلوكهم أبناء من صودرت أملاكهم مخبّئين ابتساماتهم بياقاتهم، ويتجاسرون على القول للأجانب إنّ الثورة في بولونيا ضعيفة الجذور لأنّ العمّال يعانون من الشعور بعقدة النقص تجاههم.

قبل أن تنتهي حفلتنا بقليل، نهض أحد المسؤولين البولونيّين، وكان شديد التوتّر، فأعطى بعض التعليمات للسائقين. ثمّ توجّه إليَّ شخصيّا ببعض منها، ولا بدّ أنّها تعليمات مميّزة بميزة خاصّة جدًّا لأنّ السائقين قهقهوا ضاحكين. فهم المسؤول أنّني لا أتحدّث البولونيّة، فعرّفت عن نفسي. حتّى إذا تقدّم منّي وتفحّص ملابسي، عانقني بحرارة وحماسة لا يصدران إلّا عن البولونيّين أو الروس، وقال لي:

-أنت شيوعيّ حقًّا، أيّها الرفيق. ثمَّ أشار خلسة إلى بقيّة الحاضرين بهيئة فيها استعلاء وازدراء، وأضاف:

- أمّا هؤلاء، فلا. إنّهم يُجارون الأوضاع لأنّها تلائمهم، أو لأنّهم لا يحسنون فعل شيء آخر في حياتهم.

كان مديرًا لإحدى المجلّات الفنّيّة، فاستكتبني مقالًا عن الموسيقى الشعبيّة في كولومبيا، وبعد عدّة أيّام وصلني إلى الفندق مغلّف فيه بطاقته المهنيّة التي تحمل اسمه وعنوانه، إضافة إلى أجر المقال: 200 زلوتي. ولن أتذكّر هذا المبلغ إلّا عند الحدود، بعد أسبوع.

كان الموفد الهنغاريّ عجوزًا، فيه شيء من تثاقل الدبّ، ويبدو عليه الإرهاق والتعب، وكنت أمازحه بسبب اسمه: أندريا. كان يتحدّث قليلًا من الإيطاليّة وحينما نجلس إلى المائدة، يجلس إلى جانبي. لاحظت أنّه لا يتحرّك خطوة إلّا ويصحبه رجل شاب، هنغاريّ أيضًا، متحفّظ ولطيف، يتظاهر بأنّه مترجمه ويقول إنّه يعرف أربع لغات بالفعل، لكنّه لا يبدو أنّه يتقن عمله. ذات مساء، احتجت آلة كاتبة، فطلبت إلى أندريا -السيّد أندريا- أن يعيرني آلته. استشار مترجمَه، فأعطاه المترجم الموافقة وصعد معنا إلى الغرفة كي نأخذ الآلة. وحينما طلبت إدارة الفندق جواز السفر من أندريا، لم يكن يحمله معه، لأنّه مع المترجم. وعند أوّل فرصة سنحت لي، سألت السيّد أندريا عن ذلك اللغز، فردّ عليّ بسذاجة ابن خمسة وسبعين عامًا وسألني إن كنت شيوعيًّا. وحينها كشف لي السرّ: إنّ المترجم مُخبر من رجال الأمن. كان السيّد أندريا عَلمًا من أعلام السينما في بلده. ومع أنّه موظّف حكوميّ، فإنّ جهاز الأمن الهنغاريّ -الذي لا يثق به أبدًا- لم يرسله إلى فرصوفيا إلّا ومعه مُخبر. والغاية من ذلك هي ألّا يستخدم الرجل العجوز جواز السفر فيهرب به خارج الستار الحديديّ. كان الشابّ المستقيم، الجدير بالثقة الرسميّة، يعطيه حتّى ثمن السجائر بعناية الأمّ، وبحنان الشابّ الذي يطعم بيده عجوزًا في عمر جدّه.

تلك هي الحالة الوحيدة التي أتذكّرها عن الرقابة الأمنيّة في بولونيا، وهي تخصّ الوضع الهنغاريّ لا البولونيّ. بل على العكس من ذلك، فإنّ الحرّيّة التي ينتقد بها البولونيّون حكومتهم مذهلة.

وليس هناك غير غومولكا لا يمكن مسّه، فهو الاستثناء الوحيد. في قصر الثقافة تُعرض حاليًّا مسرحيّة ألّفها أحد الطلّاب وتؤدّي الأدوار فيها فرقة تجريبيّة، تسخر من الوزراء علنًا وبأسمائهم الشخصيّة.

لا يلحظ المرء حتّى في الاتّحاد السوفياتيّ -حيث اندفاعة الشباب لا جدال فيها- غليانًا للشباب أشدّ منه في بولونيا. إنّه أشدّ وأعلى وتيرة من أيّ بلد آخر في أوروبّا الغربيّة، أو على الأقلّ أكثر حيويّة. وعلى النقيض ممّا يحدث في تشيكوسلوفاكيا، فإنّ الشباب البولونيّ يشارك مشاركة فعّالة في السياسة. فما من جريدة أو مجلّة طلابيّة -منذ أن وصل غومولكا إلى الحكم، تكاد تظهر كلّ يوم جريدة أو مجلّة جديدة- إلّا وتتدخّل مباشرة في شؤون الحكومة، والجامعة ليست غير برميل من البارود. ولقد وصلت جرأة الصحافة حدًّا حمَل الحكومة على إغلاق جريدة «Po Prostu»، ما شكّل ضربة معنويّة للطلبة، الذين كانوا ينتهزون شهر العسل هذا من حريّة الصحافة، ويطلقون نيران أقلامهم أنّى يحلو لهم. وعلى أثر هذا الإجراء اندلعت في الشوارع تظاهرات شعبيّة تخلّلها العنف.

لا أعتقد أنّ هناك أيّ شيء من التبسيط في ربط هذا النشاط الطلابيّ المحموم بعدد المكتبات المنتشرة في المدينة، وبسعر الكتاب المنخفض فيها، وبالنهم الذي يطالع به البولونيّون الكتب. في هنغاريا، علّق أحد الشيوعيّين الهنغار قائلًا: «ليست بولونيا ديمقراطيّة شعبيّة، بل إنّها مستعمرة ثقافيّة فرنسيّة، وكلّ ما فعله

البولونيّون ليس سوى محاولة للتخلّص من النفوذ السوفياتيّ، من أجل العودة إلى النفوذ الفرنسيّ». ردّ عليه أحد الشيوعيّين البولونيّين الصاع صاعين إذ علّق قائلًا: «إنّ الشيوعيّين الهنغار خدم طوعيّون للاتّحاد السوفياتيّ، وتابعون له، ودوغمائيّون محمّلون بكلّ معايب الماركسيّة القديمة». في بوداست، عانق شيوعيّ بولونيّ شيوعيًّا هنغاريًّا قائلًا: «إنّ مشاعرنا جيّاشة تجاه الثورة التي قام بها الشعب الهنغاريّ في شهر تشرين الأوّل». استشاط الهنغاريّ غضبًا وردّ معترضًا: «لم تكن ثورة. بل هي ثورة مضادّة، سلّحتها الرجعيّة». وعلى هذا المنوال تسير الأمور في إطار العائلة الواحدة. من جهة أخرى، كانا متّفقَيْن بخصوص تشيكوسلوفاكيا، إذ قالا: «لا يهمّ التشيك أيّ شيء سوى أن يبيعوا منتجاتهم». أمّا أنا فقلت لهما إنّ تشيكوسلوفاكيا، من وجهة نظري، هي الديمقراطيّة الشعبيّة الوحيدة التي تقف على أرضيّة صلبة. «لا، هي ليست ديمقراطيّة شعبيّة»، أجاباني. ثمّ تقدّما بحجّة -لا أعرف إن كانت صحيحة أم إنّهما قالاها لجذبي إلى صفّهما- مفادها أنّ تشيكوسلوفاكيا باعت ديكتاتورَ كولومبيا، روخاس بينيّا، أسلحةً ومعدّات حربيّة.

وفي ما يتجاوز هذه الخلافات العائليّة، يبدو من الجليّ أنّ تشيكوسلوفاكيا وبولونيا هما البلدان الاشتراكيّان الوحيدان اللذان يتوجّهان بأبصارهما نحو الغرب. فتشيكوسلوفاكيا تفعل ذلك ببيع منتجاتها شرقًا وغربًا، مراعية السويات بمنتهى اللباقة. وتكاد أن يكون لديها علاقات تجاريّة مع بلدان الغرب قاطبة. وهي الديمقراطيّة الشعبيّة الوحيدة التي لديها قنصل ممثّل لكولومبيا،

مع أنّ رقم هاتفه لا يظهر في دليل هواتف مدينة براغ. أمّا بولونيا فإنّها تتطلّع نحو الغرب باندفاع، ساخطة على الروس، من دون أن يبدو أنّ لها مقاصد غير المقاصد الثقافيّة الخالصة. إنّ تعلّم اللغة الفرنسيّة في بولونيا تقليد قديم تحافظ عليه العائلات في المنازل. وبعض عائلات الطبقة العاملة -كان أفرادها سابقًا مهاجرين في فرنسا- يعلّمون أبناءهم هذه اللغة في المنزل قبل البدء بتعليمهم البولونيّة في المدرسة. وما من مؤسّسة من المؤسّسات الرسميّة في فرصوفيا إلّا ويمكن التفاهم مع موظّفيها بالفرنسيّة.

إنّ الكُتّاب الفرنسيّين الذين لا يلقون آذانًا مصغية في فرنسا -خاصّة الشيوعيّين الّذين أبعدوا عن الحزب بسبب حوادث هنغاريا- يحظون بجمهور واسع في بولونيا. ومؤخّرًا، نشرت إحدى الصحف الباريسيّة مقالًا بعنوان: «إذا أردت أن تعرف ما يفكّر به اليسار الفرنسيّ، عليك بقراءة صحف فرصوفيا». وبعض مقالات جان بول سارتر الأخيرة، نُشرت بالبولونيّة قبل أن تُنشر بالفرنسيّة. وعلى صفحات جرائد فرصوفيا، تدور نقاشات حامية بين العديد من أفضل كتّاب فرنسا وبولونيا، ولا أحد يسمع بها في باريس.

من العسير أن يفهم المرء ما يريده البولونيّون حقًّا. فتركيبتهم صعبة والتعامل معهم ليس سهلًا، ذلك أنّهم يتميّزون برهافة في الحسّ تكاد أن تكون أنثويّة، إلى جانب مَيلهم إلى التفكّر والعقلانيّة. إنّ الأوضاع التي يعيشونها تبدو شديدة الشبه بطبائعهم. يُعتبر غومولكا -السكرتير العام للحزب- بطلًا قوميًّا في أعين الجميع،

ولا أحد يجادل في شأنه. لكنّي لم أعثر إلّا على عدد قليل جدًّا من البولونيّين الراضين عن حكومتهم. تستند الصحافة المستقلّة -وبعض الجرائد التي أغلقت مثل «Po Prostu»- على الماركسيّة في أصفى أشكالها، كي تهاجم النظام. ولا أحد يجادل في ضرورة تحقيق الاشتراكيّة، لكنّ الجميع يتّفق اتّفاقًا كاملًا على عدم كفاءة المجموعة الحاكمة حاليًّا. تُكال لها الاتّهامات بعدم مراعاة واقع البلاد، ومَنْ يتّهمونها، هم أنفسهم الذين ينظّمون الإضرابات والتظاهرات ويواجهون الشرطة في الشوارع، ليطالبوا بمطالب لا تسمح بتحقيقها الأوضاع الاقتصاديّة للبلاد.

هناك شأن يتّفق عليه الجميع أيضًا: العداء للسوفيات. ويُقال إنّه حينما سافر غومولكا إلى موسكو -بعد الاستفتاء الذي رسَّخ شعبيّته- كان البولونيّون جميعهم على ثقة أنّه سيُعتقل فور دخوله إلى الكرملين. فهم يعتقدون أنّ الروس لا رادع لديهم وأنّهم على استعداد لفعل أيّ شيء. ولمّا عاد غومولكا من موسكو سليمًا معافى، وهو يحمل خبر أنّ القوّات السوفياتيّة لن يكون بوسعها أن تغادر بولونيا في الحال، انقلب عليه الكثيرون ممّن صوّتوا له من قبل، وانضمّوا إلى معسكر المعارضة. «لقد تغيَّرت الأمور في الاتّحاد السوفياتيّ»، قال غومولكا في أحد اللقاءات مع العمّال، ثمّ أضاف: «انتهى عصر المحاكمات السرّيّة والإعدامات الجماعيّة». لم يقتنع أحد بما قال، لكنّ ذلك لا يعني أنّ البولونيّين يفضّلون الولايات المتّحدة، وأعتقد -ممّا استطعت أن أجريه من أحاديث معهم- أنّهم معادون للأميركان بمقدار ما هم معادون

للسوفيات. سألت الكثيرين منهم بصراحة عمّا يريدون، فأجابوا: «تحقيق الاشتراكيّة». وأعتقد أنّهم يريدونها دفعة واحدة متخطّين المراحل: فورًا والآن. يتربّع غومولكا والكاردينال فيزينسكي على قمّة الهرم السياسيّ في البلاد. وهما حليفان يريان في نفسَيْهما الحلّ، لكنّ البلاد معهما تغرق في الاضطراب وتصل إلى وضع حرج لا يمكن له أن يدوم طويلًا. كان النظام القديم قد ألغى التعليم الدينيّ، ووضع الكاردينال فيزينسكي قيد الإقامة الجبريّة في أحد الأديرة، كما ألغى حرّيّة التعبير، وحقّ الإضراب، ومبادرة الجماهير في بناء الاشتراكيّة: هذا النظام دكتاتوريّة مكوّنة من مجموعة من الأشخاص، تأتمر بأوامر موسكو؛ وبواسطتها فرض الأمن السياسيّ النظام والاستقرار بالترهيب، حتّى إنّه رمى خلف القضبان بفلاديسلاف غومولكا، المسؤول الشيوعيّ الأكثر شعبيّة. وعندما أُطلقَ سراح غومولكا تحت ضغط الجماهير التي حملته على الأكتاف من السجن حتّى مقرّ الأمانة العامّة للحزب، فإنّ أوّل ما فعله هو حلّ جهاز الأمن السياسيّ، وإحالة مسؤوليه إلى القضاء ليُحاكموا على الجرائم التي ارتكبوها، ثمّ أمر بإطلاق سراح الكاردينال. من الثابت أنّ كاردينال بولونيا لم يتحادث مطلقًا مع غومولكا، ولم يعرفه إلّا بالصور، إلّا أنّه جاب المنابر الكنسيّة كلّها، منبرًا منبرًا، في سابقة لم تُعرف من قبل، وطلب إلى المؤمنين الكاثوليك أن يصوّتوا للمرشّح الشيوعيّ، فحلَّت عليه بذلك نقمة الفاتيكان. أمّا غومولكا فقد استجرّ على نفسه أيضًا غضب الاتّحاد السوفياتيّ وغضب المتشدّدين في الحزب، لكنّه أعاد إقرار التعليم

الدينيّ وثبّته. كان ذلك مكسبًا للشعب كلّه،ومكسبًا لغومولكا، ومكسبًا للكاردينال فيزينسكي. ويا لغرابة ما جرى: أصبح عدد كبير من البولونيّين كاثوليك وشيوعيّين في الوقت عينه، فصاروا يحضرون اجتماع الحلقة الحزبيّة يوم السبت،ثمّ يذهبون في اليوم التالي لحضور قدّاس الأحد!

في رحلتنا إلى مدينة كراكوفا، رافقتنا ممرّضة عمرها عشرون عامًا -تتميّز بنضج مبكّر في التفكير بكلّ ما في الكلمة من معنى- وهي في الوقت عينه عضو ناشط في منظمة الشباب الشيوعيّ وفي إحدى الحركات ذات التوجّه الكاثوليكيّ. واسمها آنا كوزلوفسكي. انشغلتُ طوال الطريق - 14 ساعة- بمجادلتها حول استحالة خدمة الله والشيطان في الوقت نفسه. لم تكن ترى أيّ ضرورة للفصل بين النضال الشيوعيّ والحماسة الكاثوليكيّة، تعتقد أنّ الطريقين في بعض الظروف -ظروف بولونيا- يوصلان إلى الغاية نفسها. سألتها إن كانت قد تعلّمت هذه النظريّة في دروس الماركسيّة أم في دروسها الدينيّة، فأجابتني بثقة مذهلة: «لا في هذه ولا في تلك. نحن نتعلّم من تجربتنا الخاصّة في بولونيا».

لا أقدّم شهادة آنا كوزلوفسكي على أنّها خلاصة نهائيّة عن الوضع في بولونيا، لكنّ حالتها أثارت اهتمامي. أعتقد بأنّ البولونيّين منشغلون بعناد في تحديد الأطر العقائديّة، بينما الوضع الاقتصاديّ يتدهور ويتّخذ أبعادًا مأساويّة. أحيانًا، وبسبب الحماسة التي يبدونها في عرض أبسط الحجج، يجعلون المستمع إليهم يحسّ بأنّهم يأتون بالمعجزات. وعندما تعوزهم الحجّة، يحكّون

رؤوسهم بأطراف أصابعهم ويصيحون بثقة وحماسة: «نحن نعرف طريقنا، ولا أحد غيرنا يعرفها عوضًا عنّا». كانت لدى آدم فاكلافيك -مترجمي- أفكار وتصوّرات أوضح من غيره وأجلى. في إحدى المرّات، كنّا معًا نتأمّل غروب الشمس فوق نهر الفيستولا، ومداخن المصانع في الضواحي البعيدة تتوهّج بشعلاتها المتّقدة، فحدّثني عن الوضع في بولونيا بحماسة واندفاع لم يكونا خاليين تمامًا من الحزن والأسى، إذ قال: «إنّ شيوعيّي البلدان الغربيّة ألحقوا بنا ضررًا بالغًا. فلقد صوّروا هذه البلاد على أنّها الفردوس الموعود. والأجانب عمومًا يأتوننا ورؤوسهم مليئة بالأوهام، فيصعب علينا، نحن أهل البلاد، أن نجعلهم يفهمون الواقع: إنّ الحياة هنا مأساة تتكرّر في كلّ لحظة». ثمّ حدّق في الشعلات المتوهّجة للمصانع البعيدة، وأردف: «لكنّنا نسير على الدرب الصحيح، ولو مُنحنا عشر سنوات أخرى من السلام، لا أكثر، لتمكنّا من الحصول على وسائل القوّة الكفيلة بمنع الحرب بالاعتماد على أنفسنا». أعتقد بأنّ هذا الوضوح يكاد أن يكون استثنائيًّا، ذلك أنّني لاحظت شيئًا من الغموض والاضطراب لدى جميع البولونيّين الآخرين الذين تحدّثت معهم في فرصوفيا ثمّ في موسكو وفي بودابست.

يُرى الطابع المحافظ لمدينة كراكوفا على محيّاها، فحتّى شوارعها العامّة وهوائها الطلق، فيها شيء من طعم الأديرة. إنّها حصن منيع من حصون الكاثوليكيّة. قالت لي آنا كوزلوفسكي إنّ الطلّاب في هذه المدينة -يُربَّوْن في إطار عائليّ ضيّق- هم ممّن يعارضون المذهب الاشتراكيّ. كان خبر وصول الوفد الأجنبيّ

إلى المدينة قد شاع في أرجائها، فتجمّع أمام باب الفندق، عند الساعة التاسعة مساء، حشد كبير من الأطفال الذين أتوا يطلبون منّا توقيعات تذكاريّة. نزع أحد الموفدين شاله الملوّن عن عنقه وربطه حول رأسه مثل العمامة، فأثار الهرج والمرج بينهم. وبعد ساعتين أقفرت الشوارع من المارّة، وبدأت بعض نساء الليل الخمسينيّات يَطُفْنَ في الحديقة المقابلة للفندق، وقد تبرَّجن تبرّجًا مثيرًا للشفقة. أمّا الرجال القلائل الذين ظلّوا في الشارع، فكانوا مخمورين، يبدو عليهم ذلك السُّكْر الشديد الذي يفقد المرء فيه حواسّه الخمس، ويميّز البولونيّين عن غيرهم. أصرّت آنا كوزلوفسكي على إقناعي أنّ مشكلة إدمان الكحول في بولونيا لا علاقة لها بالنظام الحاكم، وأنّها مشكلة قديمة قدم الأمّة البولونيّة. إلّا أنّ غومولكا يبدو قلقًا أكثر منها، فلقد رفع سعر الفودكا مؤخّرًا بنسبة 30 بالمائة.

دخلنا أحد الكباريهات الذي لم يتبدّل فيه أيّ شيء منذ القرن المنصرم. فديكوره الوثير قديمٌ، وكذلك أثاثه، وموسيقيّوه وآلاتهم، بل إنّ الألحان فيه قديمة أيضًا والشباب لا يحسنون الرقص على أنغامها. شمَمْنا في المكان رائحة قويّة لسائل معقّم، ومع أنّ كلّ شيء فيه كان نظيفًا جدًّا، فقد أحسسنا أن في الجوّ شيئًا من آثار الغبار. أتانا نادل يلبس بنطلونًا وسترة من قماش أزغب، أخضر اللون -بدلة كبدلات مصارعي الثيران- وخاطبَني بالبولونيّة. ترجمت لي آنا فقالت إنّه لم يكن يريد استقبالي لأنّني لا أرتدي ربطة عنق. لكنّه تنبّه إلى أنّني أجنبيّ، فاعتذر منّي بالفرنسيّة، وقال موضحًا: «إنّ اللباس الرسميّ مفروض على الزبائن البولونيّين،

تفاديًا لدخول العمّال بثياب العمل». لم يكن في الكباريه زبائن شباب. رقص رجل عجوز، عمره يقارب الثمانين عامًا، رقصة البولكا مع امرأة بدينة جدًّا، معبأة في بدلة ضيّقة، مبرقشة بالزهور، فصفّق لهما الحاضرون. أمّا أنا فبذلت ما بوسعي كي أرقص قليلًا، واعتذرتْ آنا عن المشاركة -لم تكن تجيد الرقص على أنغام هذه الموسيقى- معلّلة ذلك أنّ الشباب البولونيّ لا يجيد الرقص إلّا على أنغام الموسيقى الحديثة، وتحديدًا موسيقى الجاز. وخلال عزف المقطوعة الموسيقيّة، انشغلتْ آنا بالحديث مع امرأة كانت تتفحّصني بفضول جليّ، وبدا أنّها تستمع وتتسلّى بما تراه فيّ وتعلّق عليه. سألتِ المرأةُ آنا إن كنتُ مكسيكيًّا، فأجابتها بنعم. ثمّ سألتْها إن كنتُ أحمل مسدّسًا، وقالت:

- حذارِ! قولي له إنّ إطلاق النار على الموسيقيّين ممنوع في بولونيا.

في الساعة الخامسة صباحًا ركبنا الحافلة وانطلقنا متوجّهين إلى معسكر الاعتقال في أوشفيتز (أجل!). أبدى لي السيّد ويبس -موفد الولايات المتّحدة الأميركيّة- نفوره من ذكر تلك المحرقة الألمانيّة المدبّرة الرهيبة، فصعد إلى الحافلة وجلس في مقعده مشترطًا ألّا يُريه أحد أفران حرق الجثث. تأخرتْ آنا قليلًا، وما إن صعدت إلى الحافلة حتّى حدّقت في قميصي الذي ارتديته هذا الصباح، وكذلك في قميص السيّد ويبس. لم يصدر عنها أيّ تعليق إلى أن بدّل السيّد ويبس مكانه وصارت وحيدة بجانبي، فتفحّصت حينئذ قميصي باهتمام شديد وقالت حرفيًّا:

- هذا هو النايلون الشهير.

قلت لها بحسن نيّة إنّني سأهديها القميص عندما نعود إلى الفندق، وفي الحال فهمتُ من تعابير عينيها أنّ قولي لم يكن في محلّه. «هذا قميص للرجال»، قالت. ثمّ أردفت من دون توقّف: «نحتاج خمس سنوات أُخَر حتّى ننتج النايلون في بولونيا بأنفسنا». وأبدتْ قناعتها بأنّ النايلون سيكون أرخص ونوعيته أفضل، حينما تتمكّن بولونيا من تصنيعه. وبانتظار تلك اللحظة، فإنّ مجرّد الامتناع عن استعماله هو في نظرها جزء من الكبرياء القوميّ. ثمّ أشارت بسخط إلى الطريقة التي تتدافع بها بعض الفتيات البولونيّات -أثناء مهرجان الشباب- على الموفدين الأجانب كي يشترين منهم قمصان النايلون وساعات اليد. سألتُها أليس في موقفها هذا تطرّفًا وتعصّبًا قوميًّا، فهزّت كتفيها وقالت:

- ربّما.

إنّ الأسلاك الشائكة الممتدّة إلى ما لا نهاية حول معسكر أوشفيتز لا تزال على حالها، إذ لم يتسنَّ للألمان الوقت الكافي لتفجيره بالديناميت. إنّ هذا المعسكر أكثر رهبة من معسكر ماتهاوزن -على بُعد بضعة كيلومترات من فيينّا- مع أنّه لا يحتوي مثله على ذلك الدرج الحجريّ المهول الذي يصعد من أسفل التلّة حتّى المعسكر، ويبلغ عدد درجاته 1200 درجة. أمّا معسكر بوخنفالد -في فايمار- فقد تمكنّوا من تفجيره، وعلى الزائر أن يتصوّر تفاصيله ذهنيًّا استنادًا إلى المعلومات التي يقدّمها المرشد. في أوشفيتز لم يُزَحْ أيّ شيء من مكانه. فأفران حرق الجثث لا

تزال قائمة في نهاية سلسلة مكوَّنة من ثلاث حجرات: الأولى هي «صالة استحمام صغيرة» فيها أكثر من عشرين مِرَشًّا. وحينما أتت لجان الصليب الأحمر الدولي كي تفتّش المعسكر، أراهم النازيّون تلك الحُجَر التي لا يبدو فيها ما يثير الشكّ، وذلك كي يقنعوهم بحرصهم على تطبيق معايير الصحّة والنظافة في المعتقل. لا يستوعب المرء كيف لم ينتبه أحد من أفراد هذه اللجان إلى غياب مجاري تصريف الماء في هذه الحجَر. والحقيقة أنّ الماء لم يخرج قطّ من هذه المرشّات، وما خرج منها ليس إلّا الغاز السامّ الذي تدفّق فيها إلى أن عجزت ميزانيّة هتلر عن تمويل هذا الترف ودفع ثمنه. بعدها، وبكلّ بساطة، خرج من الغرفة الثالثة دخان أفران الحرق عبر أنابيب موصولة بـ«نظام الاستحمام». أمّا الحُجرة الثانية، أي الوسطى، فكانت مُبرَّدة لحفظ الجثث. يُقدَّر أنّ النازيّين في بعض الأوقات كانوا يعدمون 250 شخصًا يوميًّا. ولم تكن الأفران كافية لحرق الجثث كلّها، فحتّى في الشتاء كان لا بدّ لها من أن تنتظر دورها في المطهر، أي في الحجرة المبرّدة. ولا فارق بين فرن حرق الجثث وفرن الخبز إلّا البوّابة المصفّحة. وفي أوشفيتز، لا تزال تُرى النقّالات التي حُملت عليها الجثث لشيِّها في الفرن. كانت عمليّة الشيّ تستغرق ساعة، فينتظر القائمون على تشغيل الأفران مضيَّ الوقت وهم يلعبون البوكر، مثلما تنتظر ربّات البيوت احمرار الدجاج في فرن المطبخ، وهنَّ يلعبن الورق. والفارق هنا هو أنّ الدخان المنبعث من فرن الجثث، يذهب ليخرج من المرشّات ويخنق دفعة أخرى من المعتقلين. كانت العمليّة تجري

طِبقًا لمتوالية هندسيّة مُحكَمة: كلّ ثلاث جثث تحترق، تنتج الغاز الكافي للحصول على اثنتي عشرة جثّة جديدة جاهزة للحرق.

تابعتُ ردود فعل الموفد الألماني بانتباه شديد، وهو رجل هادئ، له لحية صهباء -تشبه *صاحب اللحية الزرقاء* في حكاية شارل بيرو- ويمسك دائمًا بين شفتيه بغليونه المُطفأ. أنصتَ إلى شرح المترجم بهيئة باردة، وهذه ميّزة تميّز الألمان عمومًا. فالتعليقات حول فظائع النازيّة تمرّ على مسامعهم من دون أن تحرّك فيهم ساكنًا، ويمكن للمرء أن يقول أمامهم ما يرغب، لكنّهم لا يبدون تأثّرهم ولا يقدّمون أي اعتذار. في بودابست، صادفت رجلًا ألمانيًّا يستمع إلى آخر هنغاريّ يتحدّث عن تفجير النازيّين لجسر إليزابيت، الواقع على نهر الدانوب، والذي يُعتبر أجمل جسور أوروبّا، وكان يوضح عدم الفائدة الاستراتيجيّة لفعلتهم، ويشير إلى سوء نيّتهم فيها. ارتكب أحد الحاضرين حماقة وسأل الألمانيّ عن رأيه في ذلك، فأجاب باقتضاب: «إنّه أمر مؤسف». في معسكر بوخِنفالد، قال لنا مرشدنا الألمانيّ: «محنتنا أنّنا أصحاب منهج علميّ حتّى في ترتيب المذابح». في ألمانيا، كنت كلّما تعرّفت أكثر على هذا الشعب الفائق الودّ، المرح، المخلص، الذي يكاد يضاهي الإسبان بحسن ضيافته، والروس بكرمه، أُصاب بالإعياء ولا أتمكّن من فهم مأساة معسكرات الاعتقال. وفي معسكرات الاعتقال كنت أُصاب بالإعياء أيضًا ولا أتمكّن من فهم الألمان.

إنّ ولع النازيّين المريع بالمنهج العلميّ الصرف يُرى بوضوح تامّ في أوشفيتز، فغرف العمليّات الجراحيّة التي أجرى فيها أطباء

هيملر تجاربهم في تعقيم البشر فائقة التجهيز والإحكام. وهناك مختبر فيه موادّ من أبدان البشر، لا يزال على حاله حتّى الآن. كان الإنسان يدخل إليه حيًّا ثمّ يخرج منه بقايا وعيّنات. وفي داخل المختبر لا تزال كلّ الموادّ الخام التي يتشكّل منها جسم الإنسان ماثلة للعيان. وعلى أيدي النازيّين ازدهرت صناعات عدّة تعتمد على أجزاء من بدن الإنسان مثل صناعة الحقائب من جلده، والنسيج من شعره، وبعض المواد المشتقّة من دهونه. في النمسا، رأيت قطعة ضخمة من صابون الصنوبر، مزيّنة بالزهور، وكان لدى أحدهم من المبرّرات ما يحمله على الاعتقاد بأنّ هذا الصابون صُنِع من دهون بدن عمّه. في أوشفيتز هناك معرض لهذه الموادّ، ومن خلاله يدرك المرء أنّ هذه الصناعات الكارثيّة حظيت برواج كبير في السوق: إنّ حقيبةً مصنوعةً من جلد الإنسان هي حقيبة ذات نوعيّة أجود من غيرها. قبل ذلك، لم أكن أعتقد أنّ الإنسان عظيم الفائدة حتّى إنّه يفيد أيضًا في صنع الحقائبّ!

لا يقدّم البولونيّون للسائل إحصاءات ولا أرقامًا، ويكتفون بعرض حاجيّات الضحايا وأغراضهم. وعندما يرى المرء هذه الأشياء ويعلم أنّ عليه أن يرويها كتابة، يدرك أنّ عليه أن يستميح العذر من مالابارتِه. هناك رواق من خزائن العرض الضخمة المليئة حتّى السقف بشعر البشر. وهناك رواق آخر مليء بالأحذية والملابس والمناديل التي طُرِّز عليها باليد الأحرف الأولى من أسماء أصحابها، وهو مليء أيضًا بالحقائب التي دخل بها المعتقلون إلى هذا الفندق الرهيب، وهي لا تزال تحمل لصاقات بعض الفنادق

السياحيّة التي مرّوا بها من قبل. هناك خزانة عرض أخرى مليئة بأحذية الأطفال، مهترئة الكعاب: جزمات بيضاء للصغار كانوا يذهبون بها إلى المدرسة، وأكوام من الجزمات كان أصحابها ممّن تجشّموا عناء البقاء على قيد الحياة ونجوا من داء شلل الأطفال، قبل أن يقضوا نحبهم في معسكرات الاعتقال. وهناك صالة فسيحة مكتظّة بالأجهزة التعويضيّة، وبآلاف النظّارات، وبأطقم الأسنان، وبالعيون الزجاجيّة، وبالأرجل الاصطناعيّة، وبأياد مفردة في قفّازات من الصوف، وبجميع الأجهزة التي تفتّقت عنها عبقريّة الإنسان كي تواسي الجنس البشريّ وتخفّف من آلامه.

تنحَّيتُ عن المجموعة التي اجتازت الرواق بصمت، وكان غضب عارم يعتمل في صدري، لأنّني أحسست برغبة في البكاء. تقدّمتُ نحو أحد الممرّات الطويلة التي عُلِّقَت على جدرانها صور الضحايا -بمن فيهم 15000 من مجهولي الجنسيّة- التي استطاع مَنْ حرّروا المعسكر أن ينقذوها من الأرشيف. أمام إحدى الصور وقفتْ آنا كوزلوفسكي، فاقتربتُ منها وتأمّلتُ الصورة: شخص حليق الرأس، لا يُمكن تحديد جنسه وينظر إلى عدسة المصوّر نظرة صارمة.

- أهذا رجل أم امرأة؟ سألتُ.

لم تنظر آنا إليّ، بل جرَّتني برفق من يدي نحو الباب وأجابت:

- يا رجل، إنّه أبي.

في ليلتي الأخيرة في فرصوفيا، رافقتني آنا كوزلوفسكي إلى الفندق، وأحضرت معها الملصقات الرائعة التي صُمّمت في

فرصوفيا للإعلان عن عرض أفلام المخرج المكسيكيّ إيميليو فيرناندِيز، الشهير بلقب «الهنديّ». كان قد كُلّفَ بتنفيذها بعض الرسّامين الشباب، والنُسخ الأصليّة منها محفوظة الآن في أحد المتاحف. أتى إلى الفندق أيضًا عدد كبير من البولونيّين، مشعثي الشعر، من أولئك الذين تدبّ فيهم الحماسة أثناء النقاش، ويقولون إنّه يجب إعدام الرأسماليّين رميًا بالرصاص، وفي آخر لحظة يكشفون للمرء -بالأفعال- أنّ الانفعال العاطفيّ هو مرض لا شفاء منه، ونقيصة لدى الإنسان. في السيّارة التي قادتني إلى المحطّة، غمرني آدم فاكلافيك بالكلام العاطفيّ، وهو الذي قال لي قبل قليل إنّه لا يتأثّر في لحظات الوداع. «إنّ الأمر مختلف معكم، أنتم القادمين من القارة الأميركيّة. أنتم تأتون ثمّ تذهبون، ونعرف سلفًا أنّنا لن نراكم أبدًا مرّة ثانية»، قال. في مثل هذه المواقف من عادتي أن أختصر كلّ شيء بإطلاق كلمة نابية، وهذا ما فعلته. ولمّا وصلنا إلى الرصيف، في محطّة القطار، قدّم لي آدم فاكلافيك عملة معدنيّة صغيرة جدًّا، وبرّاقة، هي وحدة نقديّة بولونيّة لم أرها من قبل. أوضح لي أنّها سُحبتْ من التداول لأنّ تجّار السوق السوداء يحوّلونها إلى ميداليّات يصكّون عليها صورة العذراء، ويبيعونها بسعر أعلى. كُرمى لهذه المعلومة، كنت سأؤجّل رحلتي 24 ساعة أخرى، لكنّ ذلك كان مستحيلًا: لقد انتهت صلاحيّة تأشيرتي البولونيّة.

- وهل توجد سوق سوداء في بولونيا؟ سألت.

- سوداء ودوليّة أيضًا. إنّها مشكلة من مشاكلنا الكبيرة، أجابني آدم فاكلافيك وهو يمشي مع القطار الذي بدأ يُقلع في هذه اللحظة.

عند الساعة الرابعة صباحًا توقّف القطار، فسمعتُ طرقًا على باب مقصورتي التي أنام فيها، وإذا بموظّف الجمارك يطلّ برأسه. توجّه إليّ فورًا بالبولونيّة، فأشرت إليه أنّني لا أتحدّثها وأعطيته جواز سفري. تأكّد أنّ أوراقي نظاميّة ثمّ وجّه لي سؤالًا آخر. تولّى المسافر الذي يشغل السرير العلويّ في المقصورة شأن الترجمة: «يسأل إن كنت تحمل نقودًا بولونيّة». قلت له: «لا». ثمّ تذكّرت المائتي زلوتي التي قبضتها مقابل المقال، وتذكّرت أنّها لا تصلح خارج بولونيا وأنّها بعد خمس دقائق لن تفيدني في شيء أبدًا. أعطيتها للموظّف، لكنّه ردّ عليّ عن طريق المترجم:

– ليس من حقّنا أن نصادر منك هذه النقود. كان عليك أن تنفقها قبل خروجك من بولونيا.

أوضحتُ له أنّه لم يتسنّ لي الوقت كي أنفق أيّ شيء في بولونيا. فاقترح عليَّ أن يشتري لي شيئًا بهذا المبلغ من مطعم المحطة الذي يفتح أبوابه الآن. لم يخطر ببالي شراء أيّ شيء، لكنّه ألحّ عليّ، ولاحظتُ أنّني أضيّع عليه الوقت، فقلت:

– اشترِ لي ما شئت من السجائر.

عاد بعد عشر دقائق وهو يكاد يسقط على الأرض من الضحك. دفع إلى داخل المقصورة بكيسين كبيرين من السجائر: 200 علبة. أخبرني المترجم أنّه بهذه النقود كان بوسعي أن أشتري إحدى آلات التصوير. تحضّرت للنوم، لكنّ الموظّف ظلّ في مكانه وهو يدوّن شيئًا ما في دفتر صغير بين يديه، ثمّ مدّ يده وسلّمني إيصالًا: صار عليَّ الآن أن أدفع رسوم تصدير السجائر.

أوضحتُ له أنّ رأسمالي البولونيّ الوحيد هو هذه السجائر. فتحادث المترجم وموظّف الجمارك لحظة، ثمّ فكّر الموظّف مليًّا وقال: «ليس بوسعي أن أقبض الرسوم سجائرَ، لكنّي أستطيع أن أشتري منك 20 علبة، وقيمتها تعادل الرسوم المطلوبة تمامًا». عَدَدْتُ عشرين علبة وسلَّمته إيّاها. ناولني ثمنها 20 زلوتي، فأعدتُها إليه. ثمّ مددت يدي نحو الباب وفيها علبة السجائر المفتوحة وقلت له أن يدخّنها ذكرى منّي. أجابني أنّه ليس له الحقّ بقبولها، لأنّها صارت سلعة مصدَّرة. بدا لي الموقف مسلّيًا حتّى إنّني قرّرت أن أستمرّ فيه حتّى النهاية. بيّنتُ له أنّ العشرين علبة التي اشتراها منّي، عادت إلى بولونيا عن طريق التهريب، فهزَّ كتفيه وقال:

– بوسعي أن أقبل منك سيجارة واحدة فقط.

ناولتُه السيجارة فأشعلها، ثمّ أشعل لي سيجارتي وتمنّى لي سفرًا سعيدًا. وبعد ساعتين صُودر كيسا السجائر في تشيكوسلوفاكيا لأنّني لم أكن أمتلك كورونات تشيكيّة كي أدفع رسوم إدخالهما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-7-

الاتّحاد السوفياتيّ

22 مليونًا و400 ألف كيلومتر مربّع ليس فيها دعاية واحدة من دعايات الكوكاكولا

بعد ساعات طويلة من السفر، لم نرَ فيها شيئًا وضاقت خلالها أنفاسنا من حرّ الصيف وتكاسل قطارنا التائه، أطلّ علينا ولدٌ بجانبه بقرة ونحن نمرّ بالخَدَر ذاته؛ وعلى الفور بدأ المساء يهبط على السهل الفسيح، المزروع بالتبغ وعَبّاد الشمس. أنزل فرانكو -كنت عدت والتقيت به في براغ- زجاج النافذة وأشار إلى قبّة ذهبيّة اللون تلمع من بعيد. لقد وصلنا إلى الاتّحاد السوفياتيّ. توقّف القطار وانشقّت الأرض على أحد جانبي السكّة عن بوّابة كبيرة، فخرجت منها مجموعة من الجنود وسط زهور عبّاد الشمس، وهم يحملون الرشّاشات. لم نستطع التحقّق إلى أين تؤدّي هذه البوّابة. رأينا دَرَايا للتدرّب على الرماية، قُدَّتْ من الخشب وسُوّيَتْ على هيئة إنسان، لكنّا لم نرَ أيّ بناء قريب منّا. ولم نجد تفسيرًا معقولًا لما نشاهده غير أن تكون ثمّة ثكنة عسكريّة تحت الأرض.

تحقّق الجنود أن لا أحد يختبئ تحت العربات، ثمّ صعد إلى القطار ضابطان وتفحّصا جوازَيْ سفرنا وثبوتيّات دعوتنا إلى

المهرجان. تمعّنا فينا عدّة مرّات بانتباه شديد إلى أن اقتنعا بأنّنا مطابقان لصورتَيْنا في الجوازين. ليس هناك معبر حدوديّ آخر في أوروبّا كلّها، يجري فيه هذا الإجراء الاحترازيّ، الفظّ.

إنّ بلدة تشوب -على مسافة 2 كم من الحدود- هي أقرب بلدة سوفياتيّة إلى الغرب. وفيها كانت محطّة القطار لا تزال مزدانة بحمائم السلام الورقيّة، وبيافطات الترحيب التي كُتبت بلغات عديدة وتعبّر عن الوئام والصداقة بين الشعوب، وكذلك بأعلام بلدان الأرض كلّها، مع أنّ آخر الوفود المدعوّة كان قد مرّ بها منذ أسبوع. لم يكن أحد من المترجمين في استقبالنا، فأخبرتنا صبيّة ترتدي بدلة زرقاء أنّه بوسعنا أن نتجوّل في البلدة، لأنّ القطار الذي سيقودنا إلى موسكو، لن ينطلق قبل الساعة التاسعة ليلًا. كانت الساعة في معصمي تشير إلى السادسة مساء، لكنّي انتبهت إلى ساعة المحطّة، فتبيّن لي أنّها الثامنة في واقع الأمر. كانت ساعتي لا تزال تعمل على توقيت باريس، فتعيَّن عليّ أن أقدّمها ساعتين كي توافق التوقيت الرسميّ للاتّحاد السوفياتيّ. في تلك اللحظة كانت الساعة في بوغوتا تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا.

في البهو الرئيسيّ للمحطّة، وعلى جانبي البوّابة التي تفضي مباشرة إلى ساحة البلدة، انتصب تمثالان بالطول الكامل، طُليا حديثًا بالورنيش الفضيّ: لينين وستالين بالثياب المدنيّة وبمظهر أليف. ولغرابة مظهر الأبجديّة الروسية عنّي، تراءى لي أنّ حروف اللافتات تتساقط عنها بالجملة، وقد ولَّد ذلك في نفسي إحساسًا بالإحباط. دُهشتْ إحدى الصبايا الفرنسيّات لمظهر البؤس الذي

رأت الناس عليه. أمّا أنا فلم أرَ أنّ ملابسهم بائسة فعلًا، ولا بدّ أنّ ذلك يعود لكوني أتجوّل وراء الستار الحديديّ منذ أكثر من شهر. لقد كانت الصبيّة تعاني الصدمة المباغتة نفسها التي عانيتها أنا سابقًا في ألمانيا الشرقيّة.

في وسط الساحة، حيث حديقة حسنة التنسيق ومليئة بالألوان حول نافورة من الإسمنت، شرع بعض الجنود يتنزّهون برفقة أطفالهم. وعلى شرفات المنازل المبنيّة من الطوب والمطليّة حديثًا بألوان بسيطة وزاهية، وأمام المحلّات التجاريّة التي تفتقر إلى الواجهات الزجاجيّة، كان الناس يستمتعون ببرودة المساء. أمام عربة لبيع المرطّبات، وقفت مجموعة من الأشخاص المحمَّلين بالحقائب وأكياس الطعام، وأخذوا ينتظرون للحصول على كأس من الشراب. كان المشهد قرويًّا ويسود في ظاهره شحّ الأرياف، فيحول بيني وبين الإحساس بالفارق الزمنيّ الذي يفصلني عن القرى في الأرياف الكولومبيّة ويبلغ قدره عشر ساعات. كان ذلك دليلًا على أنّ الأرض أكثر استدارةً ممّا يتصوّر المرء، وأنّ بوسعه أن يصل إلى قرى مقاطعة توليما الكولومبية مرّة أخرى، إذا ما سافر من بوغوتا باتّجاه الشرق مسافة 15000 كيلومتر.

أتى القطار السوفياتيّ في الساعة التاسعة تمامًا. وبعد إحدى عشرة دقيقة -كما كان متوقّعًا- علا مكبّر الصوت بأحد الأناشيد، فأقلع القطار وسط صياح الناس وتلويح المناديل التي تودّعنا من الشرفات. إنّ عربات هذا القطار هي أكثر العربات راحة في أوروبّا بأسرها. وكلّ مقصورة من مقصورات أيّ عربة منها هي مثل

غرفة صغيرة خاصّة، فيها سريران، وطاولة صغيرة عليها مذياع له مفتاح وحيد، ومصباح، ومزهريّة. ليس في القطار درجات متفاوتة للمسافرين، والجميع يسافرون في الدرجة نفسها. إنّ النوعيّة الرديئة لحقائب المسافرين، وأكياسهم المليئة بالحوائج والطعام، بل حتّى ملابسهم ومظهرهم الفقير، يتناقض تناقضًا صارخًا مع فخامة العربات ونظافتها الفائقة. استرخى الجنود المسافرون على متن القطار مع عائلاتهم، فخلعوا جزماتهم وستراتهم وأخذوا يتمشّون في الممرّات بالقمصان والبوابيج. لاحقًا، تعيّن عليّ أن ألاحظ أنّ الجنود السوفيات أيضًا يتحلّون بالعادات البسيطة، الظريفة، الإنسانيّة، نفسها التي يتحلّى بها الجنود التشيك.

لا يضاهي القطارات الروسيّة في دقّة مواعيدها غير القطارات الفرنسيّة. ففي مقصورتنا وجدنا برنامجًا زمنيًّا لمسار رحلتنا، مطبوعًا بثلاث لغات، لم يتأخّر قطارنا عنه ثانية واحدة. ربّما أُعيد النظر في تنظيم سير القطارات وضبطها خلال فترة المهرجان لإبهار الموفدين. لكنّ ذلك احتمالًا بعيدًا، فلقد رأينا أشياء أبسط، أثارت استغراب الضيوف الغربيّين أيضًا، ولم تُخفَ عنهم. منها مثلًا أجهزة الراديو ذات المفتاح الوحيد: راديو موسكو. إنّ أجهزة الراديو زهيدة الثمن في الاتّحاد السوفياتيّ، لكنّ حرّيّة المستمع فيها محصورة بين الاستماع إلى راديو موسكو أو إطفاء الجهاز.

لا غرابة في ألّا تكون القطارات في الاتّحاد السوفياتيّ شيئًا آخر غير فنادق متنقّلة، إذ يصعب على خيال الإنسان تصوّر اتّساع أراضيه. فالرحلة من بلدة تشوب إلى موسكو، عبر حقول القمح

اللامتناهية والقرى الأوكرانيّة الفقيرة، هي من أقصر الرحلات في هذه البلاد: 40 ساعة. ثمّة قطار ينطلق من فلاديفوستوك -على ساحل المحيط الهادئ- يوم الاثنين من كلّ أسبوع ولا يصل إلى موسكو إلّا يوم الأحد ليلًا، بعد أن يقطع مسافة تعادل المسافة الفاصلة بين خطّ الاستواء وأحد القطبين. وإذ تشير الساعة إلى الخامسة صباحًا في شبه جزيرة تشوكوتكا، فإنّها تشير إلى منتصف الليل فوق بحيرة بايكال السيبيريّة، بينما تكون في موسكو عالقة عند السابعة مساءً من اليوم السابق. إنّ هذه التفاصيل المتعلّقة بهذا العملاق النائم، المسمّى الاتّحاد السوفياتيّ، تعطي فكرة تقريبيّة عنه، وذلك بلغاته البالغ عددها 105 لغات، وبسكّانه الذين يعدّون 200 مليون نسمة، وبقوميّاته التي لا تُعدّ ولا تُحصى -إحداها تعيش في قرية واحدة، وعشرون منها تعيش في بلد واحد، صغير، اسمه داغستان، وبعضها لا يزال مرتحلًا- وبمساحته التي تعادل ثلاثة أضعاف مساحة الولايات المتّحدة وتشغل نصف أوروبّا وثلث آسيا، وتشكّل بالمجمل سدس مساحة اليابسة، وتبلغ 22 مليونًا و400 ألف كيلومتر مربّع، ليس فيها دعاية واحدة من دعايات الكوكا كولا.

يحسّ المرء بهذه الأبعاد وضخامتها، حالما يعبر الحدود. وبما أنّ ملكيّة الأرض ليست خاصّة، فلا أسوار تفصل أيّ شيء عن غيره: لا يرد حجم إنتاج الأسلاك المعدنيّة الشائكة في الإحصاءات الرسميّة. يشعر المسافر في هذه البلاد أنّه ذاهب نحو أفق لا نهاية له، وأنّه يعبر عالمًا مختلفًا عن غيره حيث الأشياء مصمّمة على مقاس

غير مقاس الإنسان، وحيث يتعيَّن عليه تعديل دلالة النسب والأبعاد تعديلًا تامًّا حتّى يحاول أن يستوعب ما يجري حوله ويفهمه. يصعد المرء هنا إلى القطارات وكأنّه يعيش فيها، فالسفر برًّا على مَتْنها هو الطريقة الوحيدة الممكنة، كي يتجنّب الشعور بدوار المسافة الذي تسبّبه الأجواء، وكي يتفادى الإحساس بخواء الوقت الذي قد يدفع إلى الانتحار. في كلّ مدينة من المدن الكبرى، زُوّدت محطّة القطار الرئيسيّة بسيّارة إسعاف، فيها طاقم طبّي مكوّن من طبيب وممرّضَين، يصعدون إلى أيّ قطار يصل، فيعتنون بالمرضى من المسافرين ويداوونهم. ومن تبدو عليه منهم أعراض الأمراض المُعدِية، يُنقل إلى المستشفى في الحال، ثمّ يُعقّم القطار بأكمله كي لا تنتشر العدوى أو يعمّ الوباء.

في الليل، استيقظنا على رائحة عفونة لا تُطاق. حاولنا استقصاء الأفق في الظلام ومعرفة مصدر تلك الرائحة الكريهة، المجهولة، لكنّا لم نلمح بصيص نور ولو بعيد، في ليل أوكرانيا الداجي، الطويل. اعتقدتُ أنّ مالابارتِه اشتمّ هذه الرائحة من قبل ووجد لها تفسيرًا جنائيًّا هو الآن فصل شهير في أحد أعماله. فيما بعد، حدّثنا السوفيات أنفسهم عن هذه الروائح الكريهة، لكنّ أحدًا منهم لم يوضح لنا مصدرها.

في صباح اليوم التالي، كنّا لا نزال ضمن الأراضي الأوكرانيّة وكان الفلّاحون في القرى المزدانة بشارات الصداقة بين الشعوب يخرجون من منازلهم ليحيّوا القطار. وفي الساحات المزيّنة بالزهور انتصبت منحوتات ترمز إلى العمل والصداقة والصحّة، بدلًا من

التماثيل التي تجسّد الشخصيّات العامّة، وجميعها مصمّمة وفق الذوق الستالينيّ الفظّ للواقعيّة الاشتراكيّة، إذ كانت تماثيلَ لأجساد بشريّة بالحجم الطبيعيّ، مطليّة بألوان أكثر واقعيّة من أن تُصدّق، وبدا جليًّا أنّه قد أُعيد طلاءها منذ عهد قريب. بدت القرى بهيجة ونظيفة، لكنّ البيوت المتناثرة في الحقول، وحولها طواحين الماء والعربات المركونة في الحظائر مع الدجاج والخنازير -تمامًا كما في صور الأدب الكلاسيكيّ- كانت فقيرة وكئيبة، بجدرانها الطينيّة وسقوفها المصنوعة من القشّ.

لا يسع المرء إلّا أن يُعجب بالصدق والأمانة اللذين صوّر بهما الأدب والسينما الروسيّين ذلك المشهد اليوميّ العابر الذي يمرّ أمام أعيننا من خلال نافذة القطار. فالنساء -بالمناديل الحمراء على رؤوسهنّ وبالجزمات الطويلة حتّى ركبهنّ- كنّ يعملن في الحقول منافساتٍ لأزواجهنّ، وقد بَدَوْنَ شديدات البأس، قويّات البنية، مثل الرجال. وعند مرور القطار كنّ يلوّحن لنا بمعاولهنّ وبرفوشهنّ، ثمّ يلقين علينا سلام الوداع هاتفات: «داسفيدانيا». وهكذا أيضًا كان يهتف الأطفال الجالسون في عربات التبن الكبيرة التي تسير متهادية، وتجرّها أحصنة قويّة ضخمة، زُيّنت رؤوسها بالزهور.

في محطّات القطار، كان بعض الرجال يتمشّون بالبيجامات الملوّنة بألوان زاهية، وذات النوعيّة الجيّدة. في البداية، ظننت أنّهم بعض رفاق الرحلة، وقد نزلوا إلى الرصيف لترويض سيقانهم ونزع الخدر عنها. لكنّي أدركت فيما بعد أنّهم سكان المدن التي

نمرّ بها، وقد أتوا لاستقبال القطار. يمشي الناس صيفًا في الشوارع بالبيجامات في أيّ ساعة من ساعات اليوم وبشكل طبيعيّ، ولقد قيل لي إنّ هذه عادة قديمة هنا. لا تنشغل الدولة أبدًا بتقديم أيّ تفسير لتفوّق البيجامات في جودتها على الملابس اليوميّة، العاديّة.

في عربة المطعم، تناولنا غداءنا السوفياتيّ الأوّل، وكان مليئًا بالصلصات الغثّة والملوّنة بألوان عدّة. أثناء المهرجان -حيث الكافيار متوفّرٌ منذ وجبة الفطور- كان لا بدّ لمسؤولي الصحّة من أن يوصوا الوفود الغربيّة بألّا يملأوا بطونهم بهذه الصلصات. كانت وجبات الطعام -وهذا ما أثار هول الفرنسيّين- تُرفَق بالماء أو بالحليب. ونظرًا لعدم وجود الحلوى -ربّما لأنّ كل فنون صناعة المعجّنات استُنفِدت في فنّ العمارة- في نهاية الوجبة، يعتقد المرء أنّ الغداء لا ينتهي أبدًا. لا يتناول السوفيات القهوة -فهي ضارّة- ويختمون طعامهم بتناول كأس من الشاي. إنّ الشاي مشروب شائع لديهم، ويتناولونه في أيّ وقت من أوقات النهار. في فنادق موسكو الفخمة، يُقدّم للنزلاء شاي صينيّ ذو نوعيّة شاعريّة، معطّر بروائح طيّبة للغاية، تثير شهيّة المرء في أن يسكبه على رأسه. استعان موظف عربة المطعم بقاموس للّغة الإنكليزيّة، كي يشرح لنا أنّ تناول الشاي في روسيا تقليدٌ لا يتجاوز عمره المائتي عام.

على إحدى الطاولات المجاورة، سمعنا حديثًا يجري بإسبانيّة صافية، وبلهجة أهل قشتالة. كان المتحدّث رجلًا من أصل إسبانيّ مع عائلته، وهو أحد الذين تيتّموا في طفولتهم أثناء الحرب الأهليّة الإسبانيّة، وبلغ عددهم 32000 طفل، استقبلهم الاتّحاد السوفياتيّ

لاجئين على أراضيه في العام 1937. لقد تزوّج معظمهم وأنجبوا أولادًا، وهم الآن أصحاب مهن واختصاصات ويعملون في خدمة الدولة السوفياتيّة ولديهم الحرّيّة في أن يختاروا بين الجنسيّتين. ومنهم امرأة شابّة، أتت إلى هنا بعمر 6 سنوات، تشغل الآن منصب قاضي التحقيق في إحدى محاكم موسكو. منذ سنتين عاد أكثر من ثلاثة آلاف منهم إلى إسبانيا، لكنّهم لاقوا صعوبات في التكيّف مع واقعها. لا يجد العمّال المتخصّصون -أصحاب أعلى رواتب في الاتّحاد السوفياتيّ- طريقة للتأقلم مع نظام العمل الإسبانيّ. وبعضهم لاقى متاعب سياسيّة في هذا البلد، وهم الآن يعودون بالتدريج إلى الاتّحاد السوفياتيّ.

كان رفيقنا في السفر عائدًا من مدريد مع زوجته -الروسيّة- وابنته البالغة من العمر سبع سنوات، وهي مثله تتحدّث اللغتين بطلاقة تامّة. عاد وفي نيّته أن يستقرّ نهائيًّا في الاتّحاد السوفياتيّ. فمع أنّه يحتفظ بالجنسيّة الإسبانيّة، ويتحدّث عن إسبانيا وخلود هويّتها -أجل!- باندفاع وحماسة شعبويّة وبمفردات عامّيّة أكثر من أيّ إسبانيّ عاديّ، فهو لا يستوعب كيف يمكن للمرء أن يعيش في ظلّ حكم فرانكو. أمّا إمكانيّة العيش في ظلّ حكم ستالين، فقد استوعبها من دون إشكال.

إنّ الكثير من المعلومات التي زوّدَنا بها رفيقنا في السفر، أكّدها لنا فيما بعد، في موسكو، بعض الإسبان الآخرين الذين عاشوا المسار نفسه. لقد تلقّوا تعليمهم باللغة الإسبانيّة حتّى نهاية المرحلة الابتدائيّة، وذلك كي لا ينسوا لغتهم الأمّ، وتلقّوا دروسًا

خاصّة في الحضارة الإسبانيّة وغُرست في نفوسهم الغيرة الوطنيّة التي يُبدونها جميعًا بالحماسة نفسها. ويرجع إليهم بعض الفضل في كون اللغة الإسبانيّة أكثر اللغات الأجنبيّة انتشارًا في موسكو. كنّا نصادفهم وسط الحشود، ونراهم كيف يقتربون من الموفدين الذين يتحدّثون الإسبانيّة. كانوا بالمجمل يعبّرون عن رضاهم بقدَرهم، لكنّهم لم يكونوا جميعًا على قناعة واحدة في ما يخصّ النظام السوفياتيّ. سألناهم لماذا عادوا إلى إسبانيا، فأجاب بعضهم إجابة ليس فيها الكثير من اليقين، لكنّها مفعمة بالروح الإسبانيّة: «إنّه نداء الدم». وأقرّ بعضهم الآخر أنّ ذلك كان بدافع الفضول لا أكثر ولا أقلّ. واستغلّ من رغب منهم في الكلام فرصة الثقة النادرة التي أحسّوا بها معنا، فحدّثونا عن حقبة ستالين بشيء من الخوف والقلق، لكنني لاحظت أنّهم متّفقون على أنّ الأوضاع تبدّلت فعلًا في السنوات الأخيرة. كشف لنا أحدهم أنّه أمضى خمس سنوات في السجن، بعدما ضُبط وهو يحاول الفرار من الاتّحاد السوفياتيّ، مختبئًا في صندوق خشبيّ.

في كييف استقبلَنا المضيفون استقبالًا صاخبًا، إذ غمرونا بالأناشيد والزهور والأعلام، ورحّبوا بنا بكلمات قليلة جدًّا من بعض لغات الغرب الأجنبيّة التي حفظوها وردّدوها على مسامع الضيوف خلال خمسة عشر يومًا. أوضحنا لهم أنّنا نريد منهم أن يدلّونا على مكان نشتري منه الليمونادة، فجاء الجواب مثل السحر: من كلّ حدب وصوب، انهالت علينا الليمونادة والسجائر والشوكولا مرفقة بشعارات المهرجان ودفاتر الأوتوغراف. وما

أثار إعجابنا أكثر في هذه الحماسة التي لا توصف، هو أنّ أوائل الموفدين كانوا قد مرّوا من هنا منذ خمسة عشر يومًا. وخلال الأسبوعين اللذين سبقا وصولنا إلى كييف، مرّت بها قطارات كثيرة محمّلة بالموفدين الغربيّين، بمعدّل قطار كلّ ساعتين. ورغم ذلك لم يبدُ على وجوه الحشود أيّ مؤشر على التعب أو الإرهاق. وحينما أقلع القطار كنّا قد فقدنا بعض أزرار قمصاننا وشقّ علينا الوصول إلى المقصورات بسبب كميّات الزهور التي رُشقنا بها من النوافذ. كانت تلك اللحظات مؤثّرة في النفس كما لو أنّنا دخلنا بين أفراد أمّة من المجانين فقدت دلالة التناسب والأبعاد في ما يخصّ الحماسة والكرم أيضًا.

في إحدى محطّات القطار في أوكرانيا، تعرّفت إلى موفد ألمانيّ أبدى إعجابه بإحدى الدرّاجات الهوائيّة الروسيّة. والدرّاجات في الاتّحاد السوفياتي نادرة وغالية الثمن. كانت الدرّاجة التي أُعجب بها الألمانيّ ملكًا لصبيّة شابّة، فعرضتها عليه هديّة. رفض الألمانيّ العرض بتهذيب وشكرها. ولكن ما إن أقلع القطار حتّى رمت الصبيّة الدرّاجة داخل العربة، بمعونة الحشد المتجمّع على الرصيف، فجرحت الموفد الألمانيّ برأسه من غير قصد. لاحقًا، صار لدينا في موسكو مشهد مألوف خلال أيّام المهرجان: ألمانيّ يتنزّه في المدينة بدرّاجته وهو معصوب الرأس.

كان على المرء أن يكون متحفّظًا وألّا يبدي إعجابه بكلّ شيء يراه لدى السوفيات حتّى لا يجرّدهم منه، وذلك لشدّة سخائهم. إذ دأبوا على أن يقدّموا لنا كلّ شيء، سواء أكان ثمينًا أم عديم الفائدة. في إحدى قرى أوكرانيا، شقّت امرأة عجوز طريقها وسط

الجموع وأهدتني مشطًا صغيرًا لتسريح الشعر. إنّها الرغبة في العطاء لمجرّد العطاء. في موسكو توقّف أحد الموفدين لتناول قطعة من المثلّجات، فوجد نفسه مضطرًّا لأكل عشرين قطعة بدل القطعة الواحدة، مع ما يرافقها من البسكويت والسكاكر. كان من المستحيل أن يدفع المرء فاتورة حسابه في مكان عام، فالجواب حاضر دائمًا: لقد دفع الحساب زبائن الطاولة المجاورة. ذات مساء، أوقف أحد الأشخاص فرانكو في الشارع وصافحه، وإذا به يترك في يده عملة معدنيّة ثمينة تعود إلى زمن القياصرة، ثمّ يمضي في طريقه، حتّى إنّه لم يتوقف ولم ينتظر كي نقول له شكرًا. وسط الجمع المحتشد على باب إحدى دور المسرح، دسّت امرأة شابّة قطعة من فئة الـخمسة وعشرين روبلًا في جيب قميص أحد الموفدين، ولم يرَها قطّ بعد ذلك. أستبعد أنّ هذا الكرم المفرط والسخاء الهائل يعودان لأوامر حكوميّة بغرض إبهار الموفدين الأجانب. وإن كان ما استبعده حقيقة، فعلى الحكومة السوفياتيّة أن تفخر بانضباط شعبها وثباته على ولائه لها.

في القرى الأوكرانيّة تُقام أسواق لبيع الفاكهة: بسطات خشبيّة ممتدّة، تقف وراءها نساء مرتديات ملابس بيضاء، وعلى رؤوسهنّ مناديل بيضاء أيضًا، يدلّلن على منتجاتهنّ بصيحات موزونة فيها مرح وسرور. اعتقدت بداية أنّها لوحات فولكلورية معدّة في إطار المهرجان. عند الغروب توقّف القطار في إحدى هذه القرى فنزلنا منه كي نروّض سيقاننا، مغتنمين فرصة غياب حشود المستقبلين. دنا منّا صبيّ وطلب عملة معدنيّة تذكارًا يحتفظ به، لكنّه لم يكن قد تبقّى معنا منها شيء، فارتضى بآخر زرّ من أزرار قمصاننا،

ودعانا لزيارة سوق الفاكهة. توقّفنا أمام إحدى النساء، فلم تقاطعها الأخريات وهي تدلّل على بضاعتها بصياح عالٍ، غير مفهوم. بل أخذن يصفّقن معًا براحات أيديهنّ. أوضح لنا الصبيّ أنّهنّ بائعات المزارع التعاونيّة، وأشار باعتزاز إلى أنّهنّ لا يتنافسن في ما بينهنّ، لأنّ البضاعة ملكيّة جماعيّة. كان محقًّا في اعتزازه لكنّ نيّته السياسيّة في ما أشار إليه كانت أكثر من جليّة. ولكي أرى ردّ فعله، قلت له إنّ ذلك يحدث في كولومبيا أيضًا، فأصيب بالجمود.

كان وصولنا إلى موسكو متوقّعًا في اليوم التالي عند الساعة 09:02. ومنذ الساعة الثامنة بدأنا نجتاز إحدى الضواحي الصناعيّة المكتظّة بالمنشآت. إنّ قرب موسكو شيء يستشعره المرء، ويحسّ بنبضه في أعماقه، إذ يتنامى فيها مثلما يتنامى القلق. لا يعرف الناظر متى تبدأ المدينة بالظهور، ففجأة وفي لحظة ما يكتشف أنّ الأشجار اختفت، وأنّ اللون الأخضر صار ذكرى بعيدة، مثل مغامرة من مغامرات الخيال. ثمّ يخترق القطار بعويله المديد شبكة معقّدة من كابلات التوتّر العالي، وإشارات الإنذار، والجدران العالية، المشؤومة، التي ترتجّ ارتجاجًا كارثيًّا، فيحسّ المرء إحساسًا رهيبًا بالوحشة والبعد عن موطنه. وبعدها يخيّم على الأجواء سكون قاتل. في شارع ضيّق وكئيب مرّت حافلة فارغة من الركّاب، وأطلّت امرأة برأسها من إحدى النوافذ، فحدّقت بقطارنا الذي يمرّ أمامها وهي فاغرة الفم. وهناك، في الأفق الممتدّ، الصافي، الشبيه بصورة فوتوغرافيّة مكبّرة، انتصب صرح الجامعة شاهقًا.

-8-

موسكو أكبر قرية في العالم

إنّ موسكو -أكبر قرية في العالم- ليست مصمَّمة على مقاس الإنسان. وهي مرهقة، وخانقة، وخالية من الخضرة والأشجار. والمباني فيها ليست سوى بيوت القرى الأوكرانيّة نفسها، مكبّرة بأحجام عملاقة. وكأنّ من بنوها هم البنّاؤون أنفسهم، بعد أن مُنحوا المزيد من المساحات والمال والوقت، كي يُظهروا مواهبهم المعماريّة المثيرة للريبة. في وسط المدينة، يرى المرء ساحات كئيبة تُنشر فيها الثياب على أسلاك معدنيّة كي تنشف، ويرى النساء جالسات يُرضعن أطفالهنّ. وحتّى هذه الساحات الشبيهة بساحات القرى، لها أبعاد أكبر وأوسع. إنّ المنزل المتواضع المكوَّن من ثلاثة طوابق في موسكو، مماثل في علوه لبناء حكوميّ مكوّن من خمسة طوابق في مدينة غربيّة، وهو بلا ريب أكثر كلفة وأكثر وزنًا وإدهاشًا. بعض الواجهات تبدو بكلّ بساطة كأنّها مدروزة بماكينة الخياطة درزًا، فالرخام لا يُفسح فيها مجالًا للنوافذ والزجاج. لا تُلحظ الحركة التجاريّة في المدينة، وواجهات متاجر الدولة القليلة -فقيرة وشحيحة بالمعروضات- تضيع وسط العمارة العجينيّة، المريعة. وفي المساحات الشاسعة المخصّصة للمشاة، تسير ببطء حشود جارفة، كأنّها سيل من الحِمم البركانيّة. وقد عاينت

بنفسي إحساسًا لا يمكن لي وصفه -قد يكون شبيهًا بإحساسي فيما لو هبطت على سطح القمر لأوّل مرّة- وذلك عندما انطلقت بنا السيّارة التي تقلّني إلى الفندق، واقتحمتِ الأفق المديد لجادّة غوركي. اعتقدت بأنّ موسكو بحاجة إلى 20 مليون نسمة كي يملأوها. لكنّ المترجم أكّد لي بتواضع أنّ عدد سكانّها ليسوا إلّا خمسة ملايين، وأنّ مشكلتها الكبرى هي قلّة المساكن.

ليس في المدينة شوارع متواضعة، إنّما شبكة من الجادّات الكبيرة التي تتلاقى في مركزها الجغرافيّ والسياسيّ والمعنويّ: الساحة الحمراء. وحركة السير فيها -لا درّاجات في المدينة- فوضويّة ومذهلة. إنّ مظهر سيّارة الكاديلاك الحديثة التي يمتلكها سفير الأورغواي -سيّارة السفير الأميركيّ من طراز أقدم- يتعارض مع مظهر السيّارات الروسيّة ذات الألوان الباهتة، المنسوخة نسخًا عن الموديلات الأميركيّة المصنّعة بعد الحرب، والتي يقودها السوفيات كما لو أنّها عربات تجرّها الخيول. لا بدّ وأنّ طريقتهم تلك في القيادة تعود إلى تقاليد قيادة عربة الترويكا الشهيرة. تتقاطر السيّارات من أطراف المدينة نحو مركزها، مجتمعة على جانب واحد من الجادّة وهي تطير بسرعة عالية. ثمّ تتوقّف فجأة وتدور حول شارة المرور، فتندفع لتخرج إلى الجانب الآخر للجادّة، في الاتّجاه المعاكس. ليس هناك مفرّ من المرور بالمركز من أجل معاودة السير باتّجاه الأطراف. ولم نستوعب لِمَ يحتاج المرء في هذه المدينة ساعة من الزمن كي يصل من مكان إلى آخر، إلّا عندما شرح لنا أحدهم كيفيّة تنظيم المرور فيها. أحيانًا، لا بدّ من قطع

مسافة تبلغ كيلومترًا كاملًا من أجل الوصول بالسيّارة إلى الرصيف المقابل.

لا يبدو أنّ الحشود في موسكو -أعلى معدّل في الكثافة السكانيّة في أوروبّا- قلقة لاختلال الأبعاد والموازين في المدينة. ففي محطّة القطار، صادفنا حشدًا من سكّان موسكو ما برحوا يعيشون يومهم بشكل طبيعيّ رغم الضغط الذي يسبّبه المهرجان. حُبسوا خلف أحد الحواجز ريثما تُفتح الأبواب المؤدّية إلى الأرصفة كي يصعد كلّ منهم إلى قطاره، وأخذوا ينتظرون وهم غافلون بتكاسل، تمامًا مثلما ينتظر القطيع. إنّ غياب التفاوت الطبقيّ هنا واضح وضوحًا مذهلًا. فالناس بلا استثناء متساوون، ولا فرق بينهم أبدًا، وجميعهم يلبسون ملابس قديمة ورديئة التفصيل، وينتعلون أحذية رخيصة الثمن. لا يتعجّلون ولا يتدافعون، فيبدو أنّهم يعيشون على مهلهم. إنّه الحشد نفسه الذي يعيش في القرى، ببلادته وسذاجته وعافيته، لكنّه هنا على أضعاف مضاعفة بالعدد. قال لي أحد الموفدين الإنكليز: «منذ أن وصلتُ إلى موسكو وأنا أحسّ بأنّني أحمل أمام عينيّ عدسة مكبّرة». لا يكتشف المرء حقيقة هذا الحشد الهلاميّ في موسكو إلّا حينما يتحدّث إلى أفراده ويتعامل معهم شخصيًّا، فيتبيّن له أنّه حشدٌ مكوّن من رجال ونساء وأطفال يتمايزون عن بعضهم ولا يجمع بينهم الكثير.

ليست البورتريهات الضخمة من اختراع ستالين. إنّها أمر نابع من مكان بعيد في أعماق نفسيّة الروس: ولع غريزيّ بالحجم والكمّ. قَدِمَ إلى موسكو -بين أجانب وسيّاح محلّيّين- 92000 ألف

شخص في أسبوع واحد، من أجل حضور المهرجان. لم تتعرّض القطارات التي أقلّت هذا العدد الضخم من البشر لأيّ حادث أو أيّ تأخير في المواعيد. والمترجمون البالغ عددهم 14000 مترجم كانوا يلبّون النداء في الزمان والمكان المناسبَيْن تمامًا، مُزوّدين بتعليمات محدّدة لتجنّب أيّ خلل أو أيّ اضطراب. ما من أجنبيّ إلّا وكان على يقين أنّه اسْتُقبِل استقبالًا خاصًّا. لم يحدث أيّ تقصير في الإمداد بالطعام أو في الخدمات الطبيّة أو في المواصلات أو في حضور العروض. لم يتلقّ أيّ موفد تعليمات فرديّة خاصّة به، وبدا أنّ كلّ فرد يتصرّف وحده، بلا قيود وبلا رقابة، فكان من دون دراية منه، يشكّل جزءًا من منظومة دقيقة التركيب. لقد فَرَضَ القانون نفسه على الجميع تلقائيًّا. وُضع تحت تصرّف كلّ وفد عدد من الحافلات يتناسب وعدد أفراده: 2300 حافلة بالإجمال. لم يحدث ازدحام في وسائط النقل العاديّة أو تقييد لحركتها. وفوق ذلك، زُوّد كلّ موفد ببطاقة كُتب عليها اسمه كما يُلفظ بالروسية، وجنسيّته وعنوان إقامته في موسكو، وبموجبها يستطيع التنقّل مجّانًا في أيّ وسيلة من وسائل النقل العامّة. لم يُحدّد لأحد ساعة كي ينام فيها، لكنّ جميع المنشآت كانت تغلق أبوابها في تمام الساعة الثانية عشرة ليلًا. وعند الساعة الواحدة تتوقّف المواصلات، فتتحوّل موسكو إلى مدينة مقفرة.

حالفني الحظّ ورأيت ما يحدث في المدينة بعد تلك الساعة. ففي إحدى الليالي فاتني المترو الأخير وكان الفندق الذي نقيم فيه يبعد بالحافلة، مسافة 45 دقيقة عن الساحة الحمراء. توجّهتُ

إلى صبيّة كانت بقربي -تحمل عددًا كبيرًا من السلاحف الصغيرة المصنوعة من البلاستيك، في موسكو وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل!- فنصحتني بأن أستأجر سيّارة تاكسي. أوضحت لها أنّني لا أمتلك غير نقود فرنسيّة وأنّ بطاقة المهرجان لا تفيد شيئًا في هذه الساعة. أعطتني خمسين روبلًا، ودلّتني أين يمكن لي أن أجد التاكسي، ثمّ أهدتني سلحفاة بلاستيكيّة، ذكرى منها، ولم أرها بعد ذلك قطّ. انتظرتُ ساعتين كاملتين في تلك المدينة التي بدت كأنّها تنزف دمًا، من دون أن تمرّ أمامي أيّ سيّارة من سيّارات التاكسي. أخيرًا، وجدتُ إحدى دوريّات الشرطة المناوبة. أظهرت لهم بطاقتي، فأومأوا لي أن أجلس في أحد الأمكنة الشاغرة ضمن صفّ من المقاعد حيث تترنّح من السكر رؤوس بعض المخمورين الروس. احتفظ الشرطيّ ببطاقتي. وبعد قليل، صعدنا جميعًا إلى سيّارة الشرطة، ثمّ انطلقت بنا عبر الشوارع، فما برحت على مدار ساعتين توزّع السكارى المحتجزين فيها، وتوصلهم إلى منازلهم في أرجاء موسكو كلّها. كان رجال الشرطة يطرقون الأبواب، ولا يتركون السكران ينزل من سيّارتهم إلّا إذا خرج إليهم من المنزل شخص تبدو عليه ملامح المسؤوليّة والاهتمام. كنت أغطّ في نوم عميق وإذا بي أسمع صوتًا يناديني باسمي، وبلفظ سليم تمامًا، كما اعتدت أن أسمعه من أصدقائي. كان المنادي شرطيًّا، فأعاد لي بطاقتي -حيث كُتب اسمي كما يُلفظ بالأحرف الروسيّة- وأشار لي أنّنا وصلنا إلى الفندق. قلت له: «سباسيبا»، فرفع يده إلى قبّعته وحيّاني وهو يقف باستعداد، ثمّ أجابني باقتضاب: «باجالوستا».

ساد المهرجان نظام دقيق ومتكامل تديره سلطة خفيّة، لا تُرى. تبلغ سعة استاد موسكو الدوليّ 120000 متفرّج، وفي المساء الذي شهد ختام المهرجان حضر الموفدون مجتمعين عرضًا استمرّ ساعة كاملة. أثناء النهار، قدّمت حشود المشاة في الشوارع إلى الموفدين بالونات ملوّنة، فصاروا يتمشّون بها وهم سعداء. ولمّا كان موعد حفل الختام قبل العشاء، فقد ذهبوا إلى الاستاد حاملين البالونات معهم. بدأت المدرّجات تمتلئ عند الساعة السابعة، ثمّ انطلق العرض في الثامنة، وعند العاشرة فرغ الاستاد مرّة أخرى وأغلق أبوابه. لم يشهد الحفل أيّ لحظة من الفوضى أو الاضطراب. ووسط الجمهور المحتشد، كان المترجمون يشقّون طريقهم بانضباط مثير للإعجاب، من دون أن تحيط بهم صفوف رجال الشرطة، ثمّ يدلّون الموفدين على الدرب المؤدّي إلى أماكنهم قائلين لهم: «من هنا، من هنا»، فيتابع الموفدون سيرهم والبالونات الملوّنة في أيديهم. أحيا العرض 3000 آلاف لاعب من لاعبي الجمباز. وفي الختام، عزفت فرقة مكوّنة من 400 موسيقيّ نشيد الشباب، ثمّ بدأت الوفود المحلّيّة السوفياتيّة تُطيّر البالونات من مدرّجاتها، فقلّدها كلّ من كان في الاستاد. غصّت سماء موسكو بالبالونات الملوّنة، وقد أنيرت بالمصابيح الحربيّة الكاشفة من جهاتها الأربع. لاحقًا، علمنا أنّ هذا المشهد الختاميّ الرائع -الذي قمنا به، نحن بأنفسنا، من دون علم منّا- كان مخطّطًا له في البرنامج.

هذا الشغف بالضخامة وبالتنظيم الجماهيريّ الهائل، يبدو أنّه جانب مهمّ في النفسيّة السوفياتيّة. وفي نهاية المطاف، يألف المرء

هذا المفهوم عن الكمّ. ففي حفلة ضمّت 11000 مدعوّ في حدائق الكرملين، استمرّت الألعاب الناريّة ساعتين، هزّت الانفجارات خلالها الأرضَ، لكنّ السماء لم تمطر: لقد قُصفت الغيوم تحسّبًا واستباقًا. أمام ضريح الساحة الحمراء -حيث يُحفظ جثمانا لينين وستالين- يبلغ طول صفّ الانتظار كيلومترين، وذلك عندما تُفتح الأبواب للزوّار في الساعة الواحدة من بعد الظهر. لا تهدأ حركة الصفّ، إذ يُمنع على الزائر أن يتوقّف أمام الصندوقين الزجاجيّين اللذين يستلقي فيهما الزعيمان. تُغلَق الأبواب في الساعة الرابعة من بعد الظهر، وصفّ الانتظار لا يزال على حاله بطوله البالغ كيلومترين. حتّى في الشتاء، وفي العواصف الثلجيّة، لا يقلّ طول الصفّ أمام الضريح عن الكيلومترين. كما أنّه لا يمكنه أن يطول أكثر، لأنّ الشرطة ببساطة تحول دون ذلك.

في مثل هذا البلد، لا يمكن تصوّر مسرح مخصّص لموسيقى الحجرة. فعلى مسرح البولشوي، قدّمت فرقة الفنون الوطنيّة أوبّرا «الأمير إيغور»، وذلك في ثلاثة عروض يوميًّا طوال أسبوع كامل، وشارك في كلّ عرض 600 ممثّل، كانوا مختلفين عن ممثّلي العروض الأخرى. لا يمكن لأيّ ممثّل سوفياتيّ أن يشارك في أكثر من عرض واحد في اليوم الواحد. في أحد المشاهد يشارك الممثّلون جميعًا بلا استثناء، إضافة إلى ستّة أحصنة حيّة، من لحم ودم. يستحيل تقديم هذا العرض الهائل -الذي يدوم أربع ساعات- خارج الاتحاد السوفياتيّ، فالديكورات وحدها، من دون سواها، يحتاج نقلها إلى 60 عربة من عربات القطار.

مقابل ذلك، فإنّ السوفيات عالقون في مشكلات صغيرة. في المرّات القليلة التي انضممنا فيها إلى آلة المهرجان الضخمة، رأينا الاتّحاد السوفياتيّ في الإطار الذي رسمه لنفسه: مثيرًا للإعجاب وعظيمًا. لكنّنا حينما كنّا نخرج عن القطيع، ونسير مثل الخراف الضالّة، فنختلط بالناس الآخرين ونطّلع على حياتهم، كنّا نرى الاتّحاد السوفياتيّ المختنق بالمشكلات البيروقراطيّة الصغيرة، المتعَب، المرتبك، الذي يعاني من عقدة نقص هائلة تجاه الولايات المتّحدة الأميركيّة.

لقد أتاحت لنا الظروف التي أحاطت بوصولنا بأن نبدأ تعرّفنا على البلد بهذه الطريقة. لم يكن أحد في انتظارنا لأنّنا تأخّرنا ما يقارب الأسبوع. قادتنا امرأة تتحدّث الفرنسيّة بطلاقة إلى قاعة الانتظار، ويبدو أنّها مرت في المحطّة مصادفة. كان في القاعة خراف ضالّة أخرى: ثلاثة موفدين أفارقة، زنوج. أجرى عدّة موظّفين مشعّثي الشعر اتّصالات هاتفيّة عديدة، بشأننا نحن المتأخّرين، من دون الوصول إلى نتيجة واضحة. أحسست بأنّ في مقسم الهاتف عقدة من خطوط الاتصالات لا أحد يستطيع حلّها. أخيرًا، طلب إلينا أحدهم، بلغة إنكليزيّة ركيكة، أن نصطفّ في مجموعات بحسب لغاتنا، فوقف فرانكو إلى جانبي كي يأخذونا معًا إلى الفندق نفسه، ولا نفترق.

أتى ميخا -مترجمنا الذي لا يُنسى- بعد ربع ساعة، وعليه قميصه الأوكرانيّ المطرّز، وغُرّته الشقراء تتدلّى بين عينيه، وسيجارته المعطّرة بين أسنانه. كانت تلك الطريقة في التدخين تسمح له أن

يبدي ابتسامته المشرقة من دون أن يرخي سيجارته. قال لي شيئًا لم أفهمه. ظننت أنّه كلّمني بالروسيّة، فسألته هل يتحدّث الفرنسيّة. بذل ما في وسعه من جهد ليقول لنا بالإسبانيّة إنّه مترجم بهذه اللغة.

في ما بعد، قصّ علينا ميخا، وهو يكاد يموت من الضحك، كيف تعلّم الإسبانيّة في ستّة أشهر. كان يعمل جزّارًا وعمره 30 عامًا، ودرس لغتنا بغرض المشاركة في المهرجان. وفي اليوم الذي وصلنا فيه كان لسانه لا يزال يزلّ، فيخلط دائمًا بين فعلي «despertar: استيقظ» و«amanecer: طلع الفجر»، لكنّه كان يعرف عن أميركا الجنوبيّة أكثر ممّا يعرف عنها أحد أبنائها العاديّين. وخلال إقامتنا في موسكو أحرز تقدّمًا باهرًا في مستواه اللغويّ، وهو الآن المتخصّص السوفياتيّ الوحيد بمفردات لغة سائقي التاكسي في مدينة بارّانكيّا الكولومبيّة.

إنّ الظرف الذي أتينا فيه إلى موسكو في هذه اللحظة الاستثنائيّة، كان بلا شك عقبة لمعرفة الواقع. وأنا لا أزال أعتقد بأنّ الناس تجهّزوا للحدث بتعليمات حكوميّة دقيقة للغاية. كان الموسكوفيون -العفويّون بشكل لافت للنظر- يبدون تمنّعًا مثيرًا للشكوك عندما يصرّ أحدنا على رغبته في زيارة منازلهم. لكنّ كثيرين منهم كانوا أيضًا يستسلمون لرغبتنا: يعتقدون أنّهم يعيشون حياة رفاه، لكنّهم في حقيقة الأمر يعيشون عيشة سيّئة. لا ريب في أنّ الحكومة زوّدتهم بتعليمات كي لا نرى، نحن الأجانب، منازلهم من الداخل، لكنّ الكثير من هذه التعليمات أيضًا لا بدّ

وأنّه في العمق مجرّد توجيهات بلا أهمّيّة تُذكر، مثل تعليمات عدم استقبالنا في المنازل.

في المقابل، تميز الحدث بميّزة رائعة: بدا المهرجان بمثابة السيرك الذي أقيم للشعب السوفياتيّ المنقطع عن العالم منذ أربعين عامًا. كانت لدى السوفيات رغبة عارمة في رؤية الأجانب ولمسهم بأيديهم كي يتأكّدوا أنّهم مصنوعون من لحم ودم. التقينا بمواطنين كُثر لم يروا أجنبيًّا واحدًا في حياتهم كلّها. أتى إلى موسكو أناس فضوليّون ومحبّون للاطّلاع من كافّة أنحاء الاتّحاد السوفياتيّ. تعلّموا اللغات الأجنبيّة على عجل كي يتحدّثوا إلينا، ومنحونا بذلك فرصة السفر عبر البلاد كلّها من دون أن نغادر الساحة الحمراء. وفضلًا عن ذلك، قد قدّم المهرجان للمواطنين السوفيات ميّزة أخرى، إذ سمح لهم بلا ريب أن يتحدّثوا إلى الأجانب بحرّيّة أكبر وسط الزحام حيث الرقابة الأمنيّة على كلّ فرد مستحيلة عمليًّا.

عليّ أن أعترف صراحة أنّني لم أستطع، لجهلي بالروسيّة، استجلاء حقيقة أيّ أمر استجلاء قاطعًا، في هذا الجوّ الصاخب الذي استمر خمسة عشر يومًا. لكنّي في المقابل، أعتقد أنّني أدركت أشياء كثيرة، متفرّقة ومباشرة وسطحيّة، لكنّها في المجمل أكثر أهميّة من أن أكون قد ضربت صفحًا عن المجيء إلى موسكو. لديّ هوس مهنيّ في الاهتمام بالناس، ولا أعتقد أنّ المرء يستطيع أن يرى، في أيّ مكان من العالم، أناسًا مثيرين للاهتمام أكثر ممّا هم في الاتّحاد السوفياتيّ. صادفنا في الشارع صبيًّا، أتى

من مارسمانسك، وربّما كان قد وفّر المال اللازم طول العام كي يتمكّن من دفع أجرة الرحلة التي استمرّت خمسة أيّام في القطار، فاستوقفنا وسألنا:

- Do you speak English?

لم يكن يعرف من الإنكليزيّة غير هذه الجملة، لكنّه أمسك بنا من قمصاننا وما برح يتحدّث إلينا بالروسيّة وبنبرة غاضبة. أحيانًا، كان يهبط علينا أحد المترجمين هبوط العناية الإلهيّة من السماء، فنبدأ حوارًا يستمرّ ساعات مع الحشد التوّاق لأن نحدّثه عن العالم. كنت أقصّ على الحاضرين قصصًا بسيطة عن الحياة في كولومبيا، فيُذهلون وأتوهّم أنا أنّها قصص عظيمة.

إنّ بساطة هؤلاء الناس الذين يمشون في الشوارع بأحذية مهترئة، إضافة إلى طيبتهم وسخائهم، هي مزايا لا يمكن لها أن تكون خاضعة لتعليمات الحكومة. مرّات عديدة، سألتهم بفظاظة متعمّدة، كي أسمع ماذا سيقولون: «أصحيح أنّ ستالين كان مجرمًا؟». فكانوا يجيبون من دون ارتباك بمقتطفات من خطاب خروتشيف. لم يقابلونا بأيّ علامة من علامات العنف أو العدوانية، بل على العكس، كانوا دائمًا يتعمّدون في سلوكهم أن يتركوا أثرًا إيجابيًّا، نحمله معنا ذكرى طيّبة عن بلادهم. وهذا هو السبب الوحيد الذي يسمح لي بالتفكير أنّ السوفيات -عمومًا- مخلصون لحكومتهم. لم يزعجونا في شيء وهم يحتشدون حولنا، ولم يندفعوا مرّة كي يبثّوا لنا همومهم. بل كانوا ينظرون إلينا نظرات خجولة، مثل نظرات أبناء القرى، ويتطلّعون نحونا بفتور الناعسين، متفادين

بذلك إقلاق راحتنا. وحينما يرغب أحدهم بالتحدّث إلينا، يصيح بالجمع من دون أن يتوجّه لأحد بعينه: «دروشبا»، أي «صداقة». فيباغتوننا على الفور بميداليّات المهرجان والعملات المعدنيّة، مقابل أن نوقّع لهم دفاتر الأوتوغراف وأن نتبادل العناوين. إنّه شعب متعطّش لتكوين الصداقات. سألناهم أكثر من مرّة، ما الفرق بين حاضرهم وماضيهم، فكرّروا جوابًا واحدًا، تكرارًا ملحوظًا: «الآن لدينا أصدقاء». وهم فوق ذلك يريدون المزيد منهم. إنّهم يرغبون بمراسلة الآخرين، بشكل فرديّ وخاصّ، كي يتحدّثوا في شؤون الناس، ومع الناس من العالم بأسره. لديّ هنا في منزلي، على الطاولة، كومة من البطاقات البريديّة من موسكو، لا أستطيع حتّى أن أفهم ما هو مكتوب فيها، أرسلَها لي من تلك الجموع الغفيرة، أفراد كنّا نصادفهم فنترك لهم عناويننا من باب المجاملة. لم أدرك كم كنّا مستهترين بهم إلّا الآن، لكنّه كان من المستحيل التحكّم بمسألة تبادل العناوين. فما إن يتوقّف أحد الموفدين أمام كاتدرائيّة سان باسيليوس كي يوقّع دفتر الأوتوغراف لأحد المواطنين السوفيات، حتّى تتدفّق جموع الفضوليّين نحوه، فلا تعود الساحة الحمراء بعد نصف ساعة تتّسع لهم. ولا أبالغ إن قلت: في موسكو حيث كلّ شيء يدهش المرء بضخامته، فإنّ الساحة الحمراء -قلب المدينة- تخيّب الآمال بصغرها.

إنّ أيّ زائر أجنبي صادق في مشاعره، يدرك بعد فترة وجيزة من وجوده في موسكو، أنّ المرء يحتاج إلى نظام من الأوزان والمقاييس، يختلف عن نظامنا، كي يستوعب الواقع. نحن لدينا

بديهيّات يعصى على السوفيات أن يستوعبوها، كما أنّهم، هم أيضًا، لديهم بديهيّات يعصى علينا استيعابها. وما أتاحَ لي أن أستخلص ذلك، هو لقائي بثلّة من الفضوليّين استوقفتني ذات مساء في حديقة غوركي، بعد ثلاثة أيّام من وصولي إلى موسكو. قالت لي إحدى الصبايا -طالبة في معهد اللغات في لينينغراد- بإسبانيّة متقنة تمام الإتقان من دون أن ترتكب خطأ لغويًّا واحدًا خلال النقاش الذي دام ثلاث ساعات: «سنجيبك بصراحة عن الأسئلة التي تطرحها علينا كلّها، بشرط أن تجيب أنت أيضًا عن أسئلتنا بالصراحة نفسها». قبلتُ اقتراحها. سألتني عمّا لا يعجبني في الاتّحاد السوفياتيّ، فتذكّرت أنّني لم أرَ كلابًا في شوارع موسكو.

- يبدو لي أمرًا مريعًا أن تكون الكلاب كلّها قد أُكِلَت هنا، قلت.

أُصيبت المترجمة بالارتباك، ثمّ ترجمت جوابي للحاضرين، فأحسّ الجميع بشيء من الصدمة. تحدّثوا فيما بينهم بالروسيّة وقد ساد في صفوفهم الاضطراب. ثمّ علا صوت امرأة من وسط الجمع، فصاحت بالإسبانيّة: «هذا افتراء تروّج له الصحافة الرأسماليّة». أوضحتُ لها أنّ هذا ما عاينته أنا شخصيًّا بأمّ عيني. نفوا بجديّة أن تكون الكلاب قد أُكِلَت، لكنّهم أقرّوا أنّ عدد الكلاب قليل جدًّا في موسكو.

وعندما جاء دوري في السؤال، تذكّرت أنّ البروفيسور أندريه توبوليف، مخترع المحرّكات التوربينيّة السوفياتيّة TU-104، هو ملياردير ولا يعرف ماذا يفعل بالمال، فليس بوسعه أن يستثمره في

الصناعة ولا أن يشتري به بيوتًا ليؤجّرها. وبعد موته، فإنّ صناديقه المليئة بالروبلات ستؤول ملكيّتها إلى الدولة. وهنا سألت:

– هل يمكن للمرء أن يكون لديه خمس شقق في موسكو؟

فأجابوني:

– نعم، بالطبع. ولكنْ قل لنا، بحقّ السماء، كيف يمكن لرجل واحد أن يعيش في خمس شقق معًا؟

إنّ السوفيات –الذين سافروا كثيرًا على الخرائط ويعرفون جغرافيا العالم عن ظهر قلب– جاهلون بأخبار الصحافة اليوميّة جهلًا لا يُصدّق. فكما أنّ أجهزة الراديو ليس فيها غير محطّة واحدة، فإنّ الصحف اليوميّة –وهي ملك للدولة– ليس لها أيضًا غير عنوان واحد: البرافدا. إنّ معنى الخبر لديهم بدائيّ جدًّا: لا يُنشر في صحفهم من الأخبار الأجنبيّة إلّا الحوادث الفائقة الأهميّة، وفي كلّ الأحوال، يُعلَّق عليها وتُوجّه بما يلائم مصلحة النظام. لا تُباع في الأسواق مجلّات أو صحف أجنبيّة، باستثناء صحف بعض الأحزاب الشيوعيّة الأوروبيّة. لا يمكن للمرء أن يصف إحساسه حينما يلقي على مسامع هذا الجمع طرفة عن مارلين مونرو، فيحدّقون في السماء فاغري الأفواه. لم أعثر على سوفياتيّ واحد يعرف من هي مارلين مونرو. وذات مرّة، رأيت كشكًا عُلّقت على واجهاته من الجوانب كلّها نسخ من صحيفة البرافدا، حملت كلّ منها على الصفحة الأولى عنوانًا عريضًا لمقال من ثمانية أعمدة. ظننت أنّ الحرب اندلعت، إلى أن اكتشفت معنى العنوان: «النصّ الكامل للتقرير الزراعيّ».

وهكذا فإنّه من الطبيعيّ أن يُذهَل حتّى الصحافيّين، عندما أخبرُهم عن واقع الصحافة كما نفهمها نحن. فلقد أتت مجموعة منهم إلى باب الفندق الذي نقيم فيه ومعهم مترجم، وسألوني كيف تعمل الصحافة في الغرب. أوضحت لهم الأمر، ولمّا علموا أنّ للصحيفة مالكًا هناك، علّقوا بأنّهم لا يصدّقون.

– في مجمل الأحوال، لا بدّ أنّه رجل غريب الأطوار، قالوا.

أوضحوا لي سبب استغرابهم: «البرافدا» تكلّف الدولة أكثر مما تدرّ بكثير. أجبتهم أنّ الأمر نفسه يحدث في الغرب، لكنّ الخسائر تُعوّض بعوائد الدعاية والإعلان. رسمت لهم رسومات توضيحيّة، وأجريت أمامهم عمليّات حسابيّة، وبرهنت على كلامي بأمثلة بيّنة، لكنّهم لم يستوعبوا مفهوم الإعلانات. في الاتّحاد السوفياتيّ، لا وجود للدعاية لأنّه لا وجود للإنتاج الخاصّ ولا للمنافسة. بعد ذلك، ذهبت بهم إلى غرفتي في الفندق، وأريتهم جريدة فيها إعلانات تجاريّة. كان في الجريدة إعلانان لماركتَيْن مختلفتَيْن من القمصان، فقلت:

– هاتان الشركتان تصنّعان القمصان، وكلتاهما تقول للجمهور إنّ قمصانها هي الأفضل.

– وماذا يفعل الناس حيال ذلك؟

حاولت أن أشرح لهم كيف تؤثّر الدعاية في أذهان الجمهور، فأصغوا إليّ باهتمام شديد. ثمّ سألني أحدهم: «وعندما يكتشف الناس أيّ القمصان أفضل، لِمَ يُسمح للشركة الأخرى بأن تستمرّ بالادّعاء أنّ قمصانها أفضل؟». أوضحت لهم أنّه في كلّ الأحوال

يحقّ للشركة المُعلِنة أن تستمرّ في الإعلان عن منتجها دائمًا، ثمّ أردفت: «وعلاوة على ذلك، يظلّ هناك زبائن يشترون القمصان الأخرى».

- مع علمهم أنّها ليست الأفضل؟

- ربّما، قلت.

تأمّلوا في الإعلانات لحظة طويلة، وفهمت أنّهم يتناقشون في معرفتهم الأولى عن الدعاية. فجأة -لم أعرف قطّ لماذا- جلسوا على الكراسي وهم يتلوّون من الضحك.

-9-

في ضريح الساحة الحمراء، ستالين ينام قرير العين

كانت لدى سائقي المهرجان أوامرُ بألّا يتحرّكوا إلّا برفقة المترجمين. وذات مساء، بحثنا عن مترجمينا من دون طائل، فحاولنا إقناع السائق -بالإشارة- أن يأخذنا إلى مسرح غوركي. اكتفى بهزّ رأسه اليابس، وقال: «بيريبودشيك،» أي «مُتَرْجِم». أنقذتنا من ورطتنا امرأة تتحدّث خمس لغات بطلاقة تامّة، فقد أقنعت السائق بأن يقبَلها مترجمة. هذه المرأة كانت أوّل مواطن سوفياتيّ يحدّثنا عن ستالين.

كان عمرها 60 عامًا وتشبه في شكلها جان كوكتو شبهًا مخيفًا. كان وجهها مطليًّا بمساحيق التجميل، وتلبس ثيابًا مثل الصرصار مارتينث: معطفًا ضيّقًا ذا ياقة من فرو الثعلب، وقبّعة عليها ريش وتفوح منها رائحة كريات النفتلين. وما إن جلست في الحافلة حتّى مالت صوب النافذة، وأشارت إلى السياج المعدنيّ اللامتناهي للمعرض الزراعيّ: يبلغ طول محيطه 20 كيلومترًا.

قالت: - نحن مدينون لكم بهذا العمل الجميل، فلقد أُنجِز للتباهي به أمام الأجانب.

هكذا كانت طريقتها في الكلام. ثمّ كشفت لنا أنّها تعمل مصمّمة للديكور في المسرح، وهي تعتبر أنّ بناء الاشتراكيّة في الاتّحاد السوفياتيّ فاشل. ومع ذلك فإنّها تعترف بأنّ الحكّام الجدد جيّدون وأكْفاء ويتمتّعون بالحسّ الإنسانيّ، لكنّهم سيُمضون أعمارهم كلّها في تصويب أخطاء الماضي.

سألها فرانكو مَن المسؤول عن هذه الأخطاء، فمالت علينا وهي تبتسم ابتسامة فيها غبطة وسرور، ثمّ قالت:

– ذو الشاربَيْن.

تحدّثت طول المساء عن ستالين مشيرة إليه بهذا اللقب، من دون أن تسمّيه باسمه ولو مرّة واحدة، ومن دون أدنى اعتبار له، ومن دون أن تعترف بأيّ فضل له. وعلى ما تقول، فإنّ الحجّة القاطعة على ستالين ونظامه هي إقامة المهرجان: لم يكن ممكنًا أن يُقام في عهده، ولو أُقيم لما خرج الناس من منازلهم، ولأعدمت شرطة المارشال بيريا الرهيبة الموفدين في الشوارع. وأكّدت لنا أنّه لو بقي ستالين على قيد الحياة، لاندلعت الحرب العالميّة الثالثة. حدّثتنا عن الجرائم المروّعة في عهده، وكذلك عن المحاكمات الشكليّة والإعدامات الجماعيّة. ثمّ قالت إنّ ستالين هو الشخصيّة الأكثر دمويّة وتعطّشًا إلى السلطة في تاريخ روسيا. شخصيًّا، لم أسمع قطُّ قصصًا حقيقيّة مرعبة تُروى بهذا المقدار من البساطة والصراحة.

كان من العسير فهم موقفها السياسيّ. فهي تَعتبر أن لا بلدَ حرًّا في العالم سوى الولايات المتّحدة، لكنّها تقرّ بأنّها لا تستطيع

العيش إلّا في الاتّحاد السوفياتيّ. أثناء الحرب، تعرّفت إلى الكثير من الجنود الأميركان، وهي تعتقد أنّهم شبّان أبرياء وطيّبون، لكنّهم يتميّزون بالجهل التامّ. لم تكن معادية للشيوعيّة، فهي سعيدة بأن تكون الصين قد استوعبت الماركسيّة. لكنّها تتّهم ماو تسي تونغ بأنّه مارس نفوذه كي لا يحطّم خروتشيف أسطورة ستالين وإرثه بالكامل.

حدّثتنا عن أصدقائها القدامى، ومعظمهم -رجال مسرح وكتّابٌ وفنّانون ملتزمون- أُعدِموا في عهد ستالين. ولمّا وصلنا قبالة مسرح غوركي، وهو مسرح صغير لكنّه عريق، نظرت إليه مرشدتنا التي التقيناها مصادفة وفتحت لنا قلبها، فتأمّلته بوجه مشرق، ثمّ قالت وهي تبتسم بهدوء: «هذا المسرح، نسمّيه نحن مسرح البطاطا. إنّ خيرة ممثّليه هم الآن تحت التراب».

ما من سبب يحملني على الاعتقاد أنّ تلك المرأة مجنونة سوى أنّها كانت، ويا للأسف، تبدو بالفعل كذلك. لا شكّ في أنّها تعيش في وسط تُرى منه الأشياء بوضوح أكبر. ويبدو صحيحًا أنّ عامّة الشعب لم تعانِ نظام ستالين لأنّ القمع الذي مارسه توجَّه إلى دوائر المسؤولين العليا في البلاد. لا أستطيع أن أعتبر شهادة هذه السيّدة خلاصة نهائيّة عن شخصيّة ستالين لأنّني لم أتمكّن من معرفة أشخاص آخرين يقتربون، ولو اقترابًا ضئيلًا، في وجهة نظرهم منها. عندما يعبّر السوفيات عن مشاعرهم، فإنّهم يفعلون ذلك بشيء من الجنون. فلدى وداعهم أحد الأصدقاء، يبتهجون ويرقصون كما أهل القوقاز، ثمّ يخلعون قمصانهم كي يقدّموها له

هديّة، ويبكون دموعًا حارّة. لكنّهم، في المقابل، يتّسمون بالحذر الشديد والتحفّظ عندما يتحدّثون في السياسة. في هذا المضمار، من العبث التحدّث إليهم أملًا في معرفة شيء جديد: فالأجوبة كلّها منشورة في صحيفة البرافدا. وهم لا يفعلون شيئًا سوى تكرار حججها. لقد اطّلعت الأمّة بأكملها على موادّ المؤتمر العشرين -التي قالت الصحافة الغربيّة إنّها موادُ سرّيّة- للحزب الشيوعيّ السوفياتيّ، فدرستها ونقدتها. هذه ميّزة تميّز الشعب السوفياتيّ: معرفته بوضعه السياسيّ. إنّ قلّة الأخبار الدوليّة التي تصل إلى الناس، تعوّضها معرفتهم المدهشة والشاملة بالوضع الداخليّ. وباستثناء مترجمتنا التي التقيناها مصادفة وتعيش ذاهلة في عالمها الخاصّ، فإنّنا لم نلتقِ أيّ شخص آخر يعبّر عن معارضته لستالين بشكل حازم. من الجليّ أنّ هناك مشاعر أسطوريّة في قلوب السوفيات تجاه ستالين تكبح عقولهم، وكأنّ لسان حالهم يقول: «مهما يُقال ومهما يجرى، فإنّ ستالين هو ستالين، وكفى!». إنّ إزالة صوره العملاقة تجري بتحفّظ ورويّة، من دون أن تحلّ صور خروتشيف محلّها، وهكذا لا تبقى سوى صور لينين، ذلك أنّ ذكراه تبدو مقدّسة. وبالفعل، يحسّ المرء هنا أنّ في وسعه اتّخاذ الموقف الذي يحلو له في حقّ ستالين، لكنّه لا يستطيع ذلك في حقّ لينين، فهو لا يُمَسّ.

لقد تحدّثت مع الكثيرين عن ستالين، ويبدو لي أنّهم يعبّرون عن آرائهم فيه بالكثير من الحرّيّة، لكنّهم يحاولون دائمًا إنقاذ الجانب الأسطوريّ في شخصيّته باللجوء إلى تحليلات معقّدة.

غير أنّ جميع من تحدّثنا إليهم في موسكو قالوا لنا بلا استثناء: «اليوم تغيّرت الأمور». مرّة، التقينا مصادفة مدرّسًا للموسيقى، قادمًا من لينينغراد، فسألناه عن الفارق بين الماضي والحاضر. لم يتردّد لحظة في الجواب: «الآن نستطيع أن نفكّر ونعتقد بما نراه مناسبًا». كان ذلك الاتّهام أكثر الاتّهامات إثارة للاهتمام، في حقّ ستالين.

لا تتوفّر كتب فرانز كافكا في الاتّحاد السوفياتيّ، ويُشاع عنه أنّه مبشّر من مبشّري الميتافيزيقيا الخبيثة. ومع ذلك، قد يكون أفضل من كتبوا سيرة ستالين الشخصيّة. يقف البشر بالدور أمام ضريح الساحة الحمراء، في صفّ يبلغ طوله كيلومترين، فيرون للمرّة الأولى جثمان رجل نظَّم -شخصيًّا- الحياة الأخلاقيّة ذاتها للأمّة، ولم يرَه وهو حيّ إلّا عدد قليل من الأفراد. لا يتذكّر أيّ من الأشخاص الذين تحدّثنا معهم في موسكو أنّه رآه. كان ستالين يظهر على شرفات قصر الكرملين، في مناسبتَيْن احتفاليّتَيْن كلّ عام، ولا يحظى برؤيته فيهما إلّا كبار القادة السوفيات والدبلوماسيّون وبعض وحدات النخبة من القوّات المسلّحة. لم يكن مسموحًا لعامّة الشعب بدخول الساحة الحمراء أثناء الاحتفال. كان ستالين يلازم القصر، ولا يغادره إلّا لقضاء إجازته في القرم. ولقد أكّد لنا أحد المهندسين الذين شاركوا في بناء السدود على نهر الدنيبر أنّ حقيقة وجوده نفسها في لحظة من اللحظات -في قمّة المجد الستالينيّ- كانت موضع تساؤل.

لم يكن في وسع أوراق الشجر أن تهتزّ وهي على أغصانها من

دون إرادة هذه القوّة الخفيّة. لقد جمع ستالين بين يديه عددًا من السلطات يصعب تصوّره، إذ كان سكرتيرًا عامًّا للحزب الشيوعيّ، ورئيسًا لمجلس الدولة، وقائدًا أعلى للقوّات المسلّحة. كما أنّه كفّ عن دعوة المؤتمر العامّ للحزب إلى الانعقاد. وبحكم المركزيّة التي فرضها بنفسه على النظام الإداريّ، فقد ركّز في شخصه أدقّ نوابض عمل آلة البلاد. وخلال خمسة عشر عامًا من حكمه، لم يمرّ يوم واحد من دون أن تذكر الصحف اسمه.

كان خالدًا، لا عمر له. وقبيل أن يموت وقد تجاوز الستّين، إبيضّ شعر رأسه بالكامل، وبدأت تظهر عليه علامات الإرهاق الجسديّ. لكنّ عمره في مخيّلة الشعب ظلّ من عمر صوَره؛ فبواسطتها فُرِضَ حضوره الأبديّ حتّى في القرى البعيدة من الصحراء الجليديّة. كان اسمه حاضرًا في كلّ مكان: في شوارع موسكو، كما في مكتب التلغراف المتواضع في تشيليوسكين، تلك القرية الصغيرة التي تقع وراء الدائرة القطبيّة. وكانت صوَرُهُ على المباني الحكوميّة، وفي الغرف الخاصّة، وعلى الروبلات، وعلى الطوابع البريديّة، لا بل على أغلفة الموادّ الاستهلاكيّة أيضًا. أمّا التمثال الذي شُيّد تخليدًا لذكراه في ستالينغراد، فقد بلغ ارتفاعه 70 مترًا، كما بلغ قطر كلّ زرّ من أزرار سترته العسكريّة نصف متر.

إنّ أفضل ما يمكن أن يُقال في مدحه مرتبط جوهريًّا بأسوأ ما يمكن أن يُقال في قدحه، إذ لا شيء في الاتّحاد السوفياتيّ إلّا من صنيع ستالين. ومنذ وفاته والعمل جارٍ على قدم وساق في هذا البلد، لمحاولة تفكيك النظام الذي ركّبه بيديه. كان ستالين يتحكّم

شخصيًّا بالإعمار، وبالسياسة، وبالإدارة، وبالأخلاق الخاصّة بالأفراد، وبالفنّ، وبعلوم اللسانيّات، وذلك كلُّه من دون أن يبارح مكتبه الخاصّ. ولكي يضمن سيطرته المطلقة على الإنتاج، فإنّه جعل مركز إدارة صناعة البلاد كلّها في موسكو، مستعينًا بمجموعة من الوزارات التي ربطها ربطًا مباشرًا بمكتبه في الكرملين. فإن احتاج أحد مصانع سيبيريا إلى قطعة غيار ينتجها المعمل المجاور الذي يقع في الشارع نفسه، تعيّن عليه أن يطلبها من موسكو عبر متاهة من المعاملات البيروقراطيّة المرهقة. وعلى المصنع الذي ينتج قطع الغيار المطلوبة أن يكرّر المعاملات نفسها كي يرسل الطلبيّات. وأحيانًا، كانت بعض الطلبيّات لا تصل إلى أصحابها أبدًا. في المساء الذي تبيّنتُ فيه، وأنا في موسكو، مقوّمات عمل نظام ستالين، أدركت أن ليس فيه تفصيل إلّا وله شبيه في عمل من أعمال كافكا. (نَشرت للتوّ إحدى المجلّات في ألمانيا الشرقيّة رسائل فرانز كافكا -يوميّات موظّف في شركة التأمين- إلى ربّ عمله. من ضمن الرسائل، ثمّة رسالة تُنشر للمرّة الأولى، ويضطلع فيها كافكا بدور المدافع عن حقوق العمّال في وجه «حيتان شركات التأمين»).

في اليوم التالي لوفاة ستالين، بدأ نظامه يتخلخل. فبينما كانت إحدى الوزارات تدرس الطرائق الممكنة لزيادة إنتاج البطاطا (إذ كانت لديها تقارير تفيد بأنّ إنتاجها غير كاف)، كانت وزارة أخرى تدرس الطرائق الممكنة في تصنيع مشتقّات البطاطا لأنّ لديها تقارير تفيد أنّ هناك فائضًا في إنتاجها. تلك هي العقدة البيروقراطيّة

التي يحاول خروتشيف أن يحلّها الآن، وقد يمثّل بذلك للشعب السوفياتيّ رمزًا في العودة إلى الواقع الحيّ الذي يعيشه الناس، مقابل ستالين الذي كان رمزًا أسطوريًّا وكلّيّ القدرة. لكنّي أعتقد شخصيًّا أنّ الناس في موسكو لا يُولون شخص خروتشيف أهمّيّةً كبيرةً مثلما تفعل الصحافة الغربيّة. إنّ الشعب السوفياتيّ -الذي رأى ما رأى خلال 40 عامًا، فقام بالثورة وخاض الحرب ثمّ أعاد إعمار البلاد وأطلق القمر الصناعيّ- يحسّ أنّه يستحقّ حياة أفضل. ومَن يَعِدُه بذلك، كائنًا من كان، ينال دعمه. وها قد أتاه خروتشيف وقدّم له هذا الوعد، وأظنّ أنّ الشعب يثق به لأنّه رجل واقعيّ وقريب من الناس. لا يحكم خروتشيف عن طريق الصور والتماثيل كما حكم ستالين، بل يخالط الناس ويذهب إلى المزارع التعاونيّة، وهو ينتشي من شرب الفودكا، ويراهن الفلّاحين على أنّه قادر على حلب إحدى البقرات، ويحلبها فعلًا أمام الجميع. في خطاباته -التي تتميّز بسلامة منطقها وخلوّها من المناظرات العقائديّة- يعبّر بلغة روسيّة بسيطة، قريبة من لغة العوامّ. ولكي يفي خروتشيف بوعده، فلا بدّ له أوّلًا من القيام بأمرين: وقف سباق التسلّح العالميّ -الذي سيؤدّي إلى التقليل من الإنفاق الحربيّ لصالح السلع الاستهلاكيّة- وإرساء دعائم اللامركزيّة الإداريّة. ولقد انبرى له مولوتوف -الذي اشترى، على ما يبدو، «نظّاراته» من الولايات المتّحدة الأميركيّة- وعارضه في مسألة اللامركزيّة. كنت قد وصلت إلى موسكو بعد أسبوع من عزل مولوتوف، ولاحظت أنّ السوفيات حائرون مثلنا، نحن الأجانب، من هذا الإجراء. لكنّ

الشعب السوفياتيّ، الذي صبر طويلًا ونضج سياسيًّا، لم يعد لديه وقت لارتكاب الحماقات، وها هي القطارات تنطلق من موسكو محمّلة بالأرشيفات والموظّفين الإداريّين والقرطاسيّة، وتتّجه نحو المراكز الصناعيّة في سيبيريا. بل إنّ وزارات بأكملها تُنقل إلى هناك بالجملة. ولن يتمكّن أحد من البتّ في صحّة قرار خروتشيف في عزله مولوتوف إلّا إذا تحسّنت الأحوال. وفي الوقت الحالي، تُسمع في الاتحاد السوفياتيّ شتيمة تُعتبَر مقذعة: «بيروقراطيّ».

«لن يعرف أحدٌ من هو ستالين حقًّا إلّا بعد مرور زمن طويل. وليس لي من مأخذ عليه سوى أنّه أراد أن يحكم أكبر بلدان المعمورة وأشدّها تعقيدًا، كما لو أنّه متجر من المتاجر»، قال لي كاتب سوفياتيّ شابّ، وهو نفسه يعتقد بأنّ فساد الذوق الذي يعمّ في الاتحاد السوفياتيّ لا يمكن فصله عن شخصيّة ستالين، لكونه ابن قرية جيورجيّة فقيرة، ولا بدّ أنّه كان يحسّ بالارتباك أمام كنوز قصر الكرملين وأبّهته. لم يعِش ستالين قطّ خارج الاتّحاد السوفياتيّ، ومات وهو على قناعة بأنّ مترو موسكو أجمل مترو في العالم. وهذا المترو عمليّ حقًّا، ومريح ورخيص جدًّا، ويتميّز بنظافة فائقة، شأن مدينة موسكو بأسرها: في مجمّع «غوم» التجاريّ، هناك مجموعة من عاملات التنظيف يلمّعن طول النهار الدرابزينات والأرضيّات والجدران التي تتلوّث بمرور حشود الزبائن. والأمر نفسه يُرى في الفنادق ودور السينما والمطاعم وحتّى في الشوارع أيضًا؛ لكنّه يُرى على نحو أبرز في المترو الذي يعتبر جوهرة موسكو. فبالمال الذي أُنفِق على ردهاته ورخامه وأفاريزه ومراياه وتماثيله وتيجان أعمدته

كان يمكن حلّ أزمة السكن في المدينة جزئيًّا. إنّ هذا العمل يمثّل قمّة المباهاة بالمظاهر والمفاخرة بها.

أثناء المهرجان، وفي الندوة التي عُقدت عن العمارة، تناقش المعماريّون الذين أتوا من كلّ أنحاء العالم، مع مجموعة المعماريّين المسؤولين عن العمارة السوفياتيّة. كان أبرزهم -جولتوفسكي- عمره 91 عامًا، أمّا أصغرهم -أبراسينوف- فعمره 59 عامًا. هؤلاء كانوا معماريّي ستالين، وفي مواجهة النقد الذي أتاهم من الغربيّين، لم يكن لديهم سوى حجّة واحدة: إنّ الضخامة في العمارة تتّفق والتقاليد الروسيّة. لكنّ المعماريّين الطليان أثبتوا لهم، في مداخلة مدهشة بالفعل، أنّ العمارة في موسكو لا تنتمي إلى التقاليد الروسيّة، وأظهروا لهم أنّها تقليد للنيوكلاسيكيّة الإيطاليّة، بعد تضخيمها وإضافة التزيينات عليها. في نهاية المطاف، اعترف جولتوفسكي بالأمر، وهو الذي درس في فلورنسا وعاش فيها ثلاثين عامًا، ثمّ عاد إليها مرّات عديدة كي يجدّد أفكاره. وحينئذ، حدث أمر مفاجئ: عرض المعماريّون السوفيات الشباب على الحضور مشاريعهم التي رفضها المسؤولون عن العمارة الستالينيّة، وكانت مشاريع رائعة. منذ أن مات ستالين والعمارة السوفياتيّة تتنفّس هواء جديدًا.

قد يكون عيب ستالين الأكبر هو رغبته في أن يحشر نفسه في كلّ شيء، بما في ذلك التفاصيل الحميمة لحياة الأفراد. وإلى ذلك يعود جوّ الورع الأخلاقيّ، الريفيّ، البادي للعيان في المجتمع السوفياتيّ، على ما أعتقد. وليست فكرة علاقات الحبّ

المتحرّرة من كلّ قيد وشرط -وهي شطحة من شطحات الثورة- إلّا أسطورة لا سنَد لها في الواقع. وبكلّ موضوعيّة [أقول]، لا شيء يشبه الأخلاقَ المسيحيّة مثل الأخلاق السوفياتيّة. فالفتيات السوفياتيّات، في علاقتهنّ بالرجال، يتميّزن بالأدوار نفسها التي يُضرَب بها المثل لدى الإسبانيّات، وكذلك بالأحكام المسبّقة نفسها، وبالحيلِ السيكولوجيّة نفسها. وبنظرة بسيطة يتّضح أنّهن يقارِبن شؤون الحبّ بتلك الغيرة التبسيطيّة التي يسمّيها الفرنسيّون «جهلًا»، وينشغلن بكلام الآخرين، ويُقِمن علاقات خطوبة تقليديّة، طويلة الأمد، تتخلّلها الرقابة.

سألْنا رجالًا كثيرين إن كان بوسعهم اتّخاذ عشيقة خارج إطار الزواج، فجاء جوابهم بالإجماع: «نعم. شرط ألّا يدري أحد بالأمر». تُعتبر الخيانة الزوجيّة من الأسباب الوجيهة، الموجبة للطلاق، والوحدة الأسريّة محميّة بتشريعات صارمة. لكنّ هذا النوع من المشكلات لا يحتمل الانتظار ولا يصل إلى المحاكم. فالمرأة التي تتأكّد من خيانة زوجها تُبلّغ عنه المجلس العمّاليّ. «وحينذاك لا يحدث أيّ شيء. لكنّ رفاق الرجل الذي اتّخذ عشيقة على زوجته يغيّرون نظرتهم إليه ويزدرونه»، قال لنا أحد النجّارين، وهو نفسه أكّد لنا أنّه لم يكن ليتزوج خطيبته لو لم تكن عذراء.

لقد أرسى ستالين أسسًا في الذوق والجمال، ينكبّ النقّاد الماركسيّون، ومن بينهم الهنغاريّ جورج لوكاتش، اليوم على تقويضها. المخرج السينمائيّ الأكثر شهرة في الأوساط المتخصّصة، سيرجي أيْزنشتاين، غير معروف في الاتّحاد

السوفياتيّ، وقد اتّهمه ستالين بالشكلانيّة في فنّه. لم تظهر مشاهد القبل على شاشات السينما السوفياتيّة إلّا حديثًا، والقبلة الأولى ظهرت في فيلم الـ41 الذي أنتج منذ ثلاث سنوات. لقد خلّفت الجماليّات الستالينيّة وراءها، في الغرب نفسه، إنتاجًا أدبيًّا غزيرًا لا يحبّذ الشباب السوفياتيّ قراءته. في لايبزغ، يهجر الطلّاب الروس اليوم قاعات الدرس كي يقرأوا الروايات الفرنسيّة للمرّة الأولى في حياتهم. وفي موسكو، تكتشف الفتيات اللاتي يُصَبْنَ بالجنون لدى سماعهنّ أغاني البوليرو العاطفيّة أولى روايات الحبّ، فيلتهمنها التهامًا. أمّا أعمال دوستويفسكي، الذي اتّهمه ستالين بالرجعيّة، فإنها تُطبَع الآن من جديد.

في المؤتمر الصحافيّ الذي عقده المسؤول عن المنشورات السوفياتيّة باللغة الإسبانيّة، سألت: «هل كتابة الروايات البوليسيّة في الاتّحاد السوفياتيّ ممنوعة؟»، قيل لي كلّا، ثمّ لفت نظري بعضهم إلى أن لا بيئة إجراميّة هنا كي يستلهم الكتّاب منها رواياتهم. «لم يكن لدينا مجرم غير المارشال بيريا، ولقد استُبعِد الآن من الموسوعة السوفياتيّة نفسها»، قيل لي في إحدى المناسبات. هذا الحكم على بيريا يُسمع على كلّ الألسن، وهو حكم قاطع لا يقبل الجدال. لكنّ الصحافةَ الحمراء لا تأتي على ذكر أفعاله. وفي المقابل، فإنّ أدب الخيال العلميّ، الذي دانه ستالين باعتباره ضارًّا، لم يكد يُسمح به إلّا منذ عام، وذلك قبل أن يجعل منه القمر الصناعيّ السوفياتيّ أحد أكثر أشكال الواقعيّة الاشتراكيّة تعبيرًا. وهذا العام، كانت أكثر أعمال الأدب المحلّيّ مبيعًا هي أعمال

ألكسي تولستوي -لا تجمعه أيّ قرابة بليو تولستوي الشهير-، كاتب أوّل رواية من روايات الخيال العلميّ في الاتحاد السوفياتيّ. أمّا الكتب الأجنبيّة فمن المتوقّع أن يكون كتاب «الدوّامة» لخوسيه أوستاسيو ريفيرا أكثرها مبيعًا؛ فقد أُعْلِنَ رسميًّا عن بيع 300000 نسخة منه خلال أسبوعين.

أمضيت تسعة أيّام حتّى تمكّنت من الدخول إلى ضريح الساحة الحمراء. لم يكن هناك مفرّ من تخصيص فترة بعد الظهر بأكملها لهذا الغرض، والانتظار نصف ساعة في الدور، وذلك كي لا أظلّ أكثر من دقيقة واحدة في الداخل، أمرّ خلالها أمام الجثمانين مرورًا خاطفًا من دون أن أتوقّف. في محاولتنا الأولى طلب إلينا الشرطيّ المكلَّف بتنظيم الدور بطاقة دخول خاصّة؛ فبطاقة المهرجان لا تخوّلنا حقّ الدخول. خلال هذا الأسبوع كنّا في ساحة المانيج القريبة من الضريح، فلفت فرانكو انتباهي إلى هاتف عموميّ، في داخل كابينته الزجاجيّة المخصّصة لشخص واحد، صبيّتان صغيرتان تتناوبان على سمّاعة الهاتف نفسها. كانت إحداهما قادرة على التحدّث بالإنكليزيّة، فطلبنا إليها أن تساعدنا في الترجمة كي ندخل إلى الضريح. حاولت الصبيّتان إقناع الشرطيّ بأن يسمح لنا بالدخول من دون بطاقة، لكنّه صدّهما بشيء من العنف. أوضحت لنا الصبيّة التي تحسن شيئًا من الإنكليزيّة، وهي تحسّ بالخجل، أنّ رجال الشرطة السوفياتيّة ليسوا لطفاء. «Very, very, very bad»، قالت لنا بقناعة عميقة. لم يكن أحد يتقيّد فعلًا ببطاقات الدخول، ولقد عرفنا الكثير من الموفدين الذين دخلوا بمجرّد إبراز بطاقة المهرجان.

يوم الجمعة أجرينا محاولة ثالثة. وفي هذه المرّة أحضرنا معنا مترجمة تتحدّث الإسبانيّة: طالبة تدرس الرسم والتصوير، عمرها عشرون عامًا، رصينة وودودة. أخبرتنا دورية من رجال الشرطة الواقفين هناك -من دون أن يأتوا على ذكر البطاقات الخاصّة- أنّ الوقت تأخّر من أجل الدخول: فلقد أُوقف الدور منذ دقيقة واحدة. ألحّت المترجمة على رئيس الدوريّة، لكنّه اكتفى بالرفض وهو يهزّ برأسه ويشير إلى الساعة. تدافع حشد من الفضوليّين فصلَ بيننا وبين المترجمة. فجأة سمعنا صوتها الغاضب، الذي كنّا نجهل قوّته، وهي تطلق بالروسيّة صيحات الاستنكار، مكرّرة بانتظام الكلمة نفسها: «بيروقراطيّون». تفرّق الفضوليّون، فرأينا المترجمة لا تزال تصرخ، وقد بدت هائجة من الغضب مثل ديك من ديوك المصارعة. ردّ عليها رئيس دوريّة الشرطة بعنف مماثل. ولمّا تمكّنّا من جرّها حتّى السيّارة، انفجرت بالبكاء. لم نفلح قطّ في حملها على أن تترجم لنا تفاصيل المشاجرة.

قبل أن نغادر موسكو بيومين، استغنينا عن تناول الغداء كي نجرّب حظَّنا للمرّة الأخيرة. وقفنا في الدور من دون أن ننبس ببنت شفة، فأومأ إلينا الشرطيّ الواقف هناك إيماءة ودّيّة، حتّى إنّه لم يطلب منّا بطاقات المهرجان. وبعد نصف ساعة دخلنا إلى مبنى الضريح، الراسخ البنيان، المبني بحجارةٍ غرانيتيّة قرمزيّة اللون، وذلك من الباب الرئيسيّ المفضي إلى الساحة الحمراء. الباب ضيّق وقليل الارتفاع، له مصراعان مصفّحان، ويحرسه جنديّان يقفان باستعداد، ويحمل كلّ منهما بندقيّة حربتها ممدودة. كان أحدُ

ما قد أخبرني أنّ في ردهة المدخل جنديًّا يحمل سلاحًا غريبًا يخبّئه في قبضة كفّه. رأيت الجنديّ هناك بالفعل، وتبيّن لي أن «سلاحه» الخفيّ مجرّد جهاز لعدّ الزوّار.

أُنير المكان في الداخل إنارة خافتة ظليلة، وقد اكتسى بأكمله بالرخام الأحمر. هبطنا درجًا يؤدّي إلى مستوًى ينخفض بشكل ملحوظ عن مستوى الساحة الحمراء. حيث وقف جنديّان يحرسان مقسمًا هاتفيًّا: كان لوحًا أحمر اللون، عليه عدّة هواتف. دخلنا من باب مصفّح آخر، وتابعنا هبوط الدرج الأملس البرّاق، المصنوع من مادّة الجدران العارية ولونها عينهما. وأخيرًا، عبر بوّابة مصفّحة أخرى، مررنا بين جنديّين واقفين باستعداد وثبات، ثمّ غرقنا في جوٍّ من الصقيع في صالة يتوسّطها الصندوقان الزجاجيّان.

إنّها صالة مربّعة وصغيرة، لها جدران مكسوّة بالرخام الأسود المرصّع بشريط من الرخام الأحمر الذي يتموّج كشعلة النار. في السقف رُكِّبَ جهازٌ ضخمٌ عالي الطاقة للتهوية. وفي الوسط، فوق منصّة مرتفعة، جثم الصندوقان الزجاجيّان وقد أنيرا من الأسفل بإنارة حمراء ساطعة. دخلنا من جهة اليمين، وكان على رأس كلّ صندوقٍ جنديّان آخران يقفان بثبات، وكلٌّ منهما يحمل سلاحه بحربته الممدودة. لم يقف الجنود على المنصّة المرتفعة، ولم تكن رؤوسهم تصل إلى مستوى الصندوقين، فبدا لي، بسبب ذلك التفاوت في المنسوب، أنّ أنوفهم ملتصقة بهما التصاقًا. أعتقد بأنّه، عند أقدام الجنود، وُضع إكليلان من الزهور الطبيعيّة، لكنّي لست

متأكّدًا. ففي تلك اللحظة كنت مأخوذًا بحدّة الانطباع الأول: في تلك الصالة الباردة لم تكن هناك أيّ رائحة على الإطلاق.

التفّ صفّ الزوّار مرورًا حول الصندوقين من اليمين إلى اليسار، وأخذ كلّ زائر يحاول في تلك اللحظة العابرة أن يختزن في ذهنه أدقّ التفاصيل التي يراها. لكنّ الأمر كان مستحيلًا؛ فالمرء يتذكّر تلك اللحظة ويدرك أن لا شيء فيها واضحًا أبدًا. لقد حضرت نقاشًا دار بين مجموعةٍ من الموفدين، وذلك بعد ساعات قليلة من زيارة الضريح. أكّد بعضهم أنّ سترة ستالين بيضاء، بينما أكّد بعضهم الآخر أنّها زرقاء. ومن بين الذين أكّدوا أنّها بيضاء موفد زار الضريح مرّتين. أمّا أنا فأعتقد بأنّها كانت زرقاء.

يرقد لينين في الصندوق الزجاجيّ الأوّل، مرتديًا سترة زرقاء متواضعة، ويده اليسرى -التي شُلَّت في السنوات الأخيرة من حياته- متّكئة على جنبه. أُصِبْتُ بخيبة أمل لدى رؤيته، إذ بدا لي تمثالًا من الشمع. فبعد ثلاثين عامًا على تحنيط الجثمان، ها هي بوادر مرور الزمن تظهر عليه، لكنّ اليد اليسرى لا تزال توحي بأنّها مشلولة. لا يُرى الحذاء الذي ينتعله؛ فمن الخصر نزولًا يختفي الجثمان تحت غطاء من القماش الأزرق، شبيه بالسترة، لا حجم له ولا شكل. وبشكل مشابه أيضًا يبدو جثمان ستالين. يستحيل على المرء ألّا يفكّر بشكل جهنميّ، فيعتقد أنّ ما هو محفوظ ليس إلّا الجزء العلويّ من الجثمانين. لا بدّ من أن يكون لونهما في الإنارة الطبيعيّة شاحبًا شحوبًا مذهلًا، لأنّه يبدو بنفسجيًّا بشكلٍ رهيبٍ تحت الأضواء الحمراء التي تضيء الصندوقَيْن الزجاجيّين.

يغرق ستالين في نوم عميق وهو قرير العين. على الجانب الأيسر من سترته عُلِّقتْ ثلاثة نياشين معدنيّة متواضعة، وبدت ذراعاه ممدودتين بشكلٍ طبيعيّ. ولمّا كانت النياشين مزيّنة بخطوط زرقاء ناعمة، فإنّ الأمر يلتبس على الناظر ويخلط بينها وبين السترة، فيظنّ للوهلة الأولى أنّها ليست نياشين وإنّما صفٌّ من الشعارات الصغيرة. لقد تعيّن عليَّ أن أبذل جهدًا كي أتبيّنها بوضوح، ولذلك أعرف بيقين أنّ لون سترته أزرق غامق مثل سترة لينين. أمّا شعره -الأبيض بكامله- فيبدو أحمر في وهج أضواء الصندوق الزجاجيّ. وعلى وجهه ترتسم ملامح إنسانيّة حيّة، وابتسامة متكلّفة لا تبدو مجرّد انقباض في عضلات الوجه، بل تعكس شعورًا ما. ثمّة تعبير هازئ في ملامحه، وهي ملامح لا تتّفق مع ما نعرفه عنه، باستثناء اللُغْد تحت ذقنه. لا يبدو بمظهره المعهود الشبيه بمظهر الدبّ، بل يبدو مثل الأثير الساكن، قريبًا إلى القلب، ويتحلّى بشيء من الدعابة. جسده متصلّب، لكنّه يبدو خفيفًا، وشعره ناعمًا، وشارباه يكادان لا يشبهان شاربَيْه الشهيرين. لم يدهشني فيه شيء مثل رقّة يديه بأظافرهما الناعمة، الشفّافة. إنّهما يدا امرأة.

-10-

السوفيات يبدأون بالتململ من المفارقات

في أحد بنوك موسكو لفت نظري أنّ الموظّفين، بدلًا من الاهتمام بالزبائن، يَبدون غائبين عن الحسّ وهم يعدّون الكريّات الملوّنة المعلّقة على قضبان معدنيّة مثبّتة ضمن إطار خشبيّ. في ما بعد، تعيّن عليّ أن أرى مدراء المطاعم وموظّفي الهيئات الحكوميّة ومحاسبي المحلّات التجاريّة وحتّى بائعي تذاكر السينما، وهم جميعهم منهمكون في المهمّة نفسها. كنت قد سجّلت تلك الملاحظة وفي نيّتي التحقّق من اسم ما اعتقدت أنّه اللعبة الشعبيّة الأولى في موسكو، والتأكّد من أصلها وخصائصها، وإذا بمدير الفندق الذي نقيم فيه يفاجئنا ويوضح لنا أنّ تلك الكريّات الملوّنة، الشبيهة بكريّات المحاسب التي تُستخدم في المدارس كي يتعلّم الأطفال العدّ، هي الآلات الحاسبة المستخدمة في الاتّحاد السوفياتيّ. لقد كانت دهشتي عظيمة لِما عاينته، لا سيّما أنّ بعض الكرّاسات الرسميّة التي تُوزَّع في المهرجان، تشير إلى أنّ الاتّحاد السوفياتيّ يمتلك سبعة عشر نوعًا مختلفًا من الآلات الحاسبة الإلكترونيّة. في حقيقة الأمر إنّه يمتلكها، لكنّه لا يصنّعها على نطاق واسع. كان لا بدّ لهذا الإيضاح أن يفتح عينيّ على التناقضات المأساويّة في هذا البلد حيث يعيش العمّال محشورين

مع أسرهم في مساكن ضيّقة مكوّنة من غرفة واحدة، ولا يمكنهم أن يشتروا أكثر من قطعتين اثنتين من الملابس في العام الواحد، في حين تمتلئ نفوسهم زهوًا لمعرفتهم أنّ مقذوفًا سوفياتيًّا وصل إلى القمر.

يبدو أنّ تفسير ذلك يعود إلى أنّ الاتّحاد السوفياتيّ، وخلال أربعين عامًا من عمر الثورة، قرّر أن يكرّس جهوده كلّها، وطاقته في العمل كلّها، لتطوير الصناعات الثقيلة، من دون أن يولي أهميّة كبيرة لصناعة السلع الاستهلاكيّة. وهكذا يفهم المرء كيف أنّ السوفيات هم أوّل من طرح، في أسواق الملاحة الجويّة الدوليّة، أكبر طائرة في العالم، بينما الناس يشتكون من عدم توفّر الأحذية. ركّز المواطنون السوفيات الذين حاولوا شرح هذه الأشياء لنا تركيزًا خاصًّا على أنّ هذا البرنامج الشامل في التصنيع، تعرّض لانتكاسة هائلة: الحرب. فعندما غزا الألمان الاتّحاد السوفياتيّ، كانت عمليّة التصنيع في طريقها لبلوغ أوجها في أوكرانيا. ومن هناك توغّل النازيّون واقتحموا البلاد. وبينما تكفّل الجيش بصدّ الغزو، أخذ السكّان المدنيّون يفكّكون منظومات التصنيع في أوكرانيا قطعةً قطعةً، في عمليّة من أكبر عمليّات التعبئة في التاريخ. لقد نُقلت معامل بأكملها إلى سيبيريا التي تُعدّ الفناء الخلفيّ الآمن للعالم، حيث أُعيد تركيبها على عجل، وبدأت بالإنتاج سريعًا، رغم كل العراقيل. يعتقد السوفيات أنّ هذا الانقلاب المذهل أخّر عمليّة التصنيع لديهم 20 عامًا.

ما من شكّ في أنّ الجهد القوميّ الذي تطلّبته هذه المغامرة

العظيمة للجنس البشريّ، وقع على كاهل جيل واحد، فكان عليه أن يسدّد فاتورتها في أيّام الثورة أوّلًا، وفي الحرب ثانيًا، ثمّ في إعادة الإعمار أخيرًا. كانت تلك المغامرة إحدى أكبر التّهم التي تُكال لستالين، فيُنظر إليه باعتباره حاكمًا لا يرحم ولا يتحلّى بحساسيّة إنسانيّة، إذ ضحّى بجيل كامل في سبيل البناء المتعجّل للاشتراكيّة. ولكي يمنع ستالين وصول الدعاية الغربيّة إلى مسامع مواطنيه، أحكم إغلاق بوّابات البلاد من الداخل، وعجّل في تنفيذ خطّته، فحقّق قفزة تاريخيّة قد لا يكون لها مثيل في التاريخ. إنّ الأجيال الجديدة التي بدأت تنضج من دون شكّ وفي أعماقها رغبة في التمرّد، تستطيع الآن أن تمنح نفسها ترف الشكوى من عدم توفّر الأحذية.

إنّ العزلة المشدّدة التي فرضها ستالين على السوفيات، هي السبب الأكبر الذي يجعل منهم، من دون أن يدروا، مثار سخرية في أعين الغربيّين. أثناء زيارة قمنا بها لإحدى المزارع التعاونيّة، أمضينا لحظات مؤلمة باسم الكبرياء القوميّ السوفياتيّ. نُقلنا بالحافلة عبر طريق متعرّجة بين قرى مزدانة بالأعلام، كان الأطفال فيها يخرجون عند مرورنا، فينشدون الأناشيد ترحيبًا بنا ويلقون علينا من النوافذ البطاقات البريديّة التي كُتبت عليها عناوينهم بكلّ لغات الغرب. وبعد مسافة بلغت 120 كيلومترًا عن موسكو، وصلنا إلى المزرعة التعاونيّة، وكانت إقطاعة ضخمة من إقطاعات الدولة، محاطة بقرى كئيبة، شوارعها موحلة، ومنازلها الصغيرة فاقعة الألوان. استقبلَنا مديرُ المزرعة، وقد بدا أشبه بسيّد إقطاعيّ تحوّل

إلى الاشتراكيّة، وكان أصلع الرأس بالكامل، فاقدًا للبصر بإحدى عينيه، فغطّاها بعصابة مثل قراصنة الأفلام. حدّثنا خلال ساعتين عن الإنتاج الضخم للأراضي التي يديرها، حتّى كاد عمل المترجم يقتصر على ترجمة أرقامه الفلكيّة التي يذكرها. وبعد أن تناولنا في الهواء الطلق طعام الغداء الذي أُمْطِرَتْ أطباقه بأناشيد فولكلوريّة قديمة أنشدتها الجوقة المدرسيّة، دُعينا لاكتشاف ماكينات الحلب الآليّ للأبقار. ظهرت امرأة بدينة جدًّا وتمور عافية، فتأهّبت لتُرينا آلة الحلب الهيدروليكيّة التي تُعتبر في المزرعة الخطوة الأكثر تقدّمًا في مكْنَنَة صناعة الحليب ومشتقّاته. لم تكن الآلة أكثر من حقنة مطاطيّة موصولة إلى برميل، وفي نهاية الحقنة جهاز شفط يعمل بِوَصْلِهِ من جهة بضرع البقرة، ومن الجهة الأخرى بصنبور ماء. وكان يكفي أن يُفتح الصنبور، كي يقوم ضغط الماء بالعمل الذي كان يقوم به الحلابون يدويًّا في العصور الوسطى. هذا من الناحية النظريّة بالطبع، أما من الناحية العمليّة، فقد كانت تلك اللحظة من أكثر اللحظات إحراجًا خلال زيارتنا. لم تفلح خبيرة آلات الحلب، الموفورة الصحّة، في تثبيت الجهاز على الضرع، وذلك بعد أن حاولت مدّة ربع ساعة بل واستبدلت البقرة ببقرة أخرى. ولمّا تمكّنت أخيرًا من تحقيق غايتها، تأهّبنا جميعًا كي نصفّق لها رأفة بها، فرحين بصدق لخروجنا من هذا المأزق ظافرين.

كان معنا موفد أميركيّ، يحبّ المبالغة لكنّ مبالغته لم تكن بلا أساس حقيقة، فأوضح لمدير المزرعة أنّ المزارعين في الولايات المتّحدة يضعون البقرة في جانب، فيخرج الحليب المُبَسْتَرُ من

الجانب الآخر، وتخرج معه أيضًا قوالب الزبدة المغلّفة. أبدى المدير بلطف شديد إعجابه بما قاله الموفد الأميركيّ، لكنّه بدا غير مصدّقٍ كلامه. لاحقًا، اعترف لنا أنّه كان بالفعل مقتنعًا بأنّ البشريّة لم تبتكر نظامًا ميكانيكيًّا لحلب البقر، قبل آلة الحلب الهيدروليكيّة التي ابتكرها السوفيات.

التقينا بأحد الأساتذة الجامعيّين في موسكو، وكان قد زار فرنسا عدّة مرّات، فأخبرنا أنّ العمّال السوفيات بشكل عام مقتنعون أنّهم هم من ابتكروا أشياء كثيرة تُستعمل في الغرب منذ سنوات طويلة. أمّا الطرفة الأميركيّة القديمة التي تقول إنّ السوفيات يدّعون لأنفسهم ابتكار أبسط الأشياء، بدءًا من الشوكة والسكّين وحتّى الهاتف، فإنّها ليست من دون أساس. فبينما أخذت الحضارة الغربيّة تشقّ طريقها في بداية القرن العشرين، وتتقدّم بتطوّرها التقنيّ الهائل، كان السوفيات يحاولون حلّ مشكلاتهم الأساسيّة بأنفسهم، خلف الأبواب المغلقة. وإذا ما صادف ذات مرّة أحدُ السيّاح الغربيّين في موسكو شابًّا موتورًا وأشعث الشعر، يدّعي أنّه مبتكر الثلّاجة الكهربائيّة، فلا يجوز النظر إليه على أنّه كاذب أو مجنون: فعلى الأرجح أن يكون كلامه صحيحًا وأن يكون بالفعل قد ابتكر الثلّاجة الكهربائيّة في منزله، إنّما بعد وقت طويل من شيوعها في منازل الغرب.

يفهم المرء واقع الاتّحاد السوفياتيّ بشكل أفضل، حينما يتبيّن له أنّ التقدّم فيه سار باتّجاه معكوس. لقد كان الهمّ الأكبر للحكّام الثوريّين تأمين قوت الشعب. وعلينا أن نسلّم فعلًا ومن دون تحيّز

بأنّ الاتّحاد السوفياتيّ خالٍ من الجوع والبطالة، وذلك مثلما سلّمنا من دون تحيّز أيضًا بوجود الجوانب السلبيّة فيه. بل على العكس من ذلك، فإنّ المرء يلحظ على المستوى القومي، نوعًا من الانشغال الدائم بنقص اليد العاملة. في مكتب العمل يتكفّل قسم الدراسات الذي أُحدِث منذ فترة غير بعيدة، بتحديد كلفة العامل الواحد بطريقة علميّة. في أحد المؤتمرات الصحافيّة التي عُقدت بحضور المسؤولين عن هذا المكتب التابع لوزارة العمل، قيل لنا إنّ بعض مدراء المصانع يتقاضون رواتب أقلّ من بعض العمّال المتخصّصين، وذلك ليس لأنّهم يبذلون جهدًا أقلّ في العمل وحسب، إنّما لأنّهم يتحمّلون قدرًا أقلّ من المسؤوليّة أيضًا. سألتُ لماذا تعمل النساء في الاتّحاد السوفياتيّ، بأعمال الحفر على الطرقات والسكك الحديديّة كتفًا إلى كتف مع الرجال، وهل ذلك مُستحسن من وجهة النظر الاشتراكيّة. جاء الجواب قاطعًا: تمارس النساء أعمالًا قاسية بسبب النقص الحادّ في اليد العاملة، والبلاد منذ الحرب ترزح تحت حالة من حالات الطوارئ. أكّد لنا مدير المكتب أنّه يجب الاعتراف، على الأقلّ في حالة العمل الجسديّ، بوجود فارق كبير بين الرجل والمرأة؛ وقال، بحسب الدراسات المتوفّرة بين يديه، إنّ مردود النساء أفضل في الأعمال التي تتطلّب صبرًا وانتباهًا، وأكّد أنّ عدد النساء اللواتي يعملن بأعمال الحفر في الاتّحاد السوفياتيّ يقلّ كلّ يوم، ثمّ شدّد بشكل جدّي على أنّ حلّ هذه المشكلة هو الشغل الشاغل لمكتبه.

وهكذا، فبينما النساء تعمل على الطرقات في الاتّحاد السوفياتيّ،

تطوّرت فيه صناعات ثقيلة جعلت منه، خلال أربعين عامًا، إحدى القوى العظمى في العالم، إلّا أنّ صناعة السلع الاستهلاكيّة تعرّضت للإهمال. حينما كشف السوفيات عن امتلاكهم السلاح النوويّ، لم يكن بوسع من رأى واجهات المحلّات الفقيرة في موسكو، أن يصدّقهم. بيد أنّ للأمر وجهًا آخر، إذ كان يجب تصديقهم تحديدًا بسبب ذلك: فأسلحتهم النوويّة، وصواريخهم الفضائيّة، وزراعتهم المُمَكْنَنَة، ومنشآتهم التصنيعيّة الهائلة، وإمكانيّاتهم التقنيّة في تحويل الصحاري القاحلة إلى حقول مزروعة، هي حصيلة 40 عامًا من انتعال الأحذية المتواضعة وارتداء الملابس الرديئة، أي ما يقارب نصف قرن من أكثر أشكال التقشّف تشدّدًا. إنّ عمليّة التنمية المعكوسة أدّت إلى بعض المفارقات التي انفجر لها الأميركان ضاحكين. منها مثلًا طائرة التوبوليف TU-104 الجبّارة. فمع أنّها تُعتبر تحفة الملاحة الجويّة السوفياتيّة، ومُنعت من الهبوط في مطار لندن لأنّ الأطباء النفسيّين الإنكليز تصوّروا أنّها قد تسبّب اضطرابات لسكّان الأحياء المجاورة للمطار، وتميّزت أيضًا بخدمة هاتفيّة بين طوابقها المختلفة، فقد كانت مراحيضها من أكثر المراحيض بدائيّة في العالم. وكذلك مثال آخر، ذلك الموفد السويديّ الذي كان يعاني من الإكزيما، وقد عجز أشهر الأطباء في بلده عن علاجها علاجًا كاملًا. استغلّ فرصة وجوده في موسكو وعرض حالته على الطبيب المناوب القريب إلى مكان إقامة وفد بلاده. وصف له الطبيب مرهمًا أزال الإكزيما عن جلده إزالة تامّة في أربعة أيّام، إلّا أنّ الصيدليّ الذي باعه المرهم، أخرجه

بأطراف أصابعه من إناء زجاجيّ، ولفّه بورقة من ورق الجرائد. أمّا في ما يتعلّق بالصحّة العامّة، فربّما كان أفظع المشاهد ذاك الذي رأيناه أثناء عودتنا من المزرعة التعاونيّة، حين توقّفنا على الطريق، في ضاحية من ضواحي موسكو لتناول المرطّبات في إحدى الاستراحات، في الهواء الطلق. قادتنا ضرورة قضاء الحاجة إلى المراحيض، وإذا بها مجرّد منصّة خشبيّة طويلة فيها بضعة ثقوب، وفوق كلّ ثقب منها قرفص مواطن سوفياتيّ محترم كي يفعل ما يجب فعله وهو يتحدّث مع جاره بمرح وسرور، في جوّ من أجواء التشاركيّة الفيزيولوجيّة التي لا تنصّ عليها العقيدة الشيوعيّة.

إنّ الشباب الذين صاروا يستخدمون العقل والمنطق في هذا البلد الذي ترسّخت دعائم بنيانه، ينتفضون الآن غضبًا لهذه المفارقات. ففي الجامعة تُعقد حلقات نقاش عامّة حول ذلك وتُطالب الحكومة بضرورة أن يرتقي الاتّحاد السوفياتيّ في الراحة والرفاه المعيشيَّيْن إلى مستوى العالم الغربيّ. ومؤخّرًا، أثارت طالبات معهد اللغات في موسكو ضجّة كبيرة، حينما خرجن إلى الشوارع وهنّ لابسات على الطراز الباريسيّ، وقد ربطن شعورهنّ مثل ذيل الحصان، وانتعلن أحذية عالية الكعب. لم يقع الأمر مصادفة: ثمّة موظّف غافل سمح للمجلّات الغربيّة بأن تصل إلى معهد اللغات، كي تطّلع عليها الطالبات اللواتي سيصبحن مترجمات ويتمكنّ من قراءتها والتعوّد على اللغة اليوميّة وفهم العادات في الغرب. لقد أتت التجربة أُكُلَها، لكنّ الطالبات استثمرن المجلّات أيضًا من أجل خياطة ملابسهنّ الخاصّة وتحديث تسريحة شعورهنّ. ولمّا

رأتهنّ السيّدات السوفياتيّات البدينات يتمشّيَنّ في الشوارع كلّها، وفي الأماكن كلّها وفي الأوقات كلّها، لطمن خدودهنّ وصحن وهنّ يشعرن بالخزي: «يا له من جيل ضائع!». إلّا أنّ الضغوط المستمرّة لهؤلاء الشباب، كان لها أثر كبير في التغيّرات التي طرأت على السياسة السوفياتيّة مؤخّرًا. فلقد تلقّى كريستيان ديور، مصمّم الأزياء الشهير، عروضًا من الحكومة السوفياتيّة كي يطرح أزياءه في أسواق موسكو، وذلك قبل بضعة أيّام من وفاته في باريس.

وهكذا، صار لا بدّ لليلتي الأخيرة في المدينة من أن تنتهي تحديدًا بحدث يعكس كفاية تطلّعات هؤلاء الشباب. في جادّة غوركي، استوقفني شابّ لا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، ليسألني عن جنسيّتي. وعلى ما قال لي، فإنّه كان يعدّ أطروحة لنيل إجازة جامعيّة حول شعراء الأطفال في العالم، ويحتاج إلى معلومات عنهم في كولومبيا. حدّثته عن رافائيل بومبو، فقاطعني وقد احتقن وجهه استياءً: «إنّ المعلومات المتعلّقة برافائيل بومبو كلّها بحوزتي». اجتمعنا حول طاولة عليها كأسان من البيرة، فألقى على مسمعيّ حتّى منتصف الليل مختارات من شعر الأطفال في أميركا اللاتينيّة، وذلك بلهجة ثقيلة، إنّما بطلاقة مثيرة للإعجاب.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة عادت موسكو إلى حياتها الطبيعيّة. فمرّت أمام أعيننا صور الحشود المكتظّة عينها، والواجهات المتّسخة بالغبار عينها، والصفّ عينه الذي يمتدّ كيلومترين أمام ضريح الساحة الحمراء، وبدت لنا من خلال نافذة الحافلة التي أقلّتنا إلى المحطّة وكأنّها رؤية من زمن آخر. وعند الحدود، صعد

إلى العربة بمشقّة مترجم ضخم الجثّة، بدا كأنّه الأخ الشقيق لتشارلز لوتن. «أتيت كي أقدّم لكم اعتذاري»، قال لنا. «عن ماذا؟»، سألناه. «لأنّ أحدًا لم يأتِ كي يقدّم لكم الزهور»، أجابنا. ثمّ أوضح لنا، والدموع تكاد تنهمر من عينيه، أنّه المسؤول عن ترتيبات الوداع عند الحدود؛ وأنّه في هذا الصباح طلب هاتفيًّا ألّا يُجلب المزيد من الزهور إلى المحطّة، وأمر التلاميذ الذين يأتون عادة لإنشاد الأناشيد عند مرور القطار، بالعودة إلى مدارسهم، ظنًّا منه أنّ جميع الموفدين قد رحلوا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-11-

لقد زرت هنغاريا بنفسي

منذ عام، وفي شهر تشرين الأوّل [1956]، هزّت مأساة الانتفاضة الهنغاريّة العالم بأسره. وبإخمادها، أصبحت البلاد معزولة تمامًا عن الغرب، وممنوعة على الصحافيّين، ولا يمكن الوصول إليها أبدًا، ولم يستطع أحد أن يحلّ لغز ما جرى في بودابست. منذ عدّة أسابيع، فُتحت أبواب هنغاريا للمرّة الأولى منذ إغلاقها، وسُمحَ لمجموعة صغيرة من المراقبين الأجانب بالدخول إليها. كان بينهم غابرييل غارسيّا ماركيز، وهو صحافيّ شابّ ومراسل شهير لصحيفة «مومنتو» الفنزويليّة. كان ماركيز يريد معرفة الحقيقة، بعيدًا عن أيّ دعاية موجّهة، في أيّ اتّجاه كان. فحضر إلى المكان عينه الذي خطب فيه الزعيم الشيوعيّ يانوش كادار؛ كما أنّه كسر الطوق الذي ضربه حوله رجال الأمن، منذ دخوله البلاد، لمنعه من معرفة الحقيقة، فتواصل مع الناس في الشوارع والحانات، ونجح في التحدّث إلى المسؤولين الشيوعيّين، وفي ختام زيارته قال لأحدهم: «سوف أكتب عن هنغاريا بصراحة ووضوح قاطعَيْن». وهذه شهادته:

ظهر يانوش كادار -رئيس مجلس الحكم في هنغاريا- على الملأ، في العشرين من شهر آب [1957]، أمام 6000 مزارع تجمّعوا

في ملعب كرة القدم في وِيبِست، وهي بلدة تقع على مسافة 132 كيلومترًا من العاصمة بودابست؛ وكان ذلك لمناسبة الاحتفال بالذكرى السنويّة لإقرار الدستور الاشتراكيّ في البلاد. وهناك، أمام المنصّة التي ألقى فيها كادار خطابه، كنت حاضرًا شخصيًّا، ضمن أوّل وفد من المراقبين الغربيّين الذين دخلوا هنغاريا بعد حوادث تشرين الأوّل [1956].

خلال عشرة أشهر متتالية ظلّت بودابست مدينة مغلقة؛ وآخر طائرة غربيّة أقلعت من مطارها -في السادس من تشرين الثاني من العام -1956 كانت طائرة نمساويّة ذات محرّكين، استأجرتها مجلّة «ماتش» كي تُخلي موفدها الخاص جان كارلوس بيدرازيني، بعد أن أُصيب بجروح بليغة في المعركة التي جرت في المدينة. ومنذ ذلك الحين أُغلِقت أبواب هنغاريا في وجه الأجانب، ولم تُفتَح لأحد سوانا، إلّا بعد عشرة أشهر من ذلك التاريخ، وذلك بضغط من الهيئة التحضيريّة لمهرجان موسكو، إذ إنّها نجحت في أن تحصل من الحكومة الهنغاريّة على دعوة لزيارة بودابست، يقوم بها وفد مكوّن من 16 مراقبًا أجنبيًّا. كان ضمن الوفد مهندسان معماريّان، ومحامٍ ألمانيّ، وأحد أبطال الشطرنج النرويجيّين؛ ومن الصحافيّين لم يكُن حاضرًا سواي إلى جانب صحافيّ آخر، اسمه موريس ماير، وهو بلجيكيّ له شاربان أصهبا اللون، ظريف للغاية، ومغرم بتناول البيرة ورواية النكات المضحكة؛ وكان قد استهلّ سيرته المهنيّة في الحرب الأهليّة الإسبانيّة، وأصيب بجروح في مدينة لياج البلجيكيّة أثناء الاحتلال الألمانيّ. لم أكن أعرف أيًّا

من أعضاء الوفد. وعند الحدود تفحّص موظّفو الجمارك أوراقنا مدّة ثلاث ساعات، ثمّ قادنا المترجم إلى عربة المطعم وعرَّفنا على بعضنا، وأخيرًا ألقى علينا كلمة ترحيبيّة مختصرة. وبعد ذلك قرأ على مسامعنا برنامج زيارتنا للأيّام الخمسة عشر القادمة: زيارات للمتاحف، وحفلات غداء مع منظمّات شبابيّة، وكذلك عروض رياضيّة، ثمّ أسبوع كامل من الاستجمام على ضفاف بحيرة بالاتون.

تقدّم موريس ماير إلى المترجم بالشكر على هذه الدعوة الكريمة، وذلك باسمنا جميعًا، لكنّه نوّه بأنّ الفعاليّات السياحيّة لا تثير فينا اهتمامًا كبيرًا، وأنّنا راغبون في الاطّلاع على أشياء أخرى، كأن نعرف ما جرى من حوادث في هنغاريا معرفة دقيقة، من دون تضليل سياسيّ، وأن نفهم الوضع الحاليّ في البلاد. أجاب المترجم بأنّ حكومة كادار ستفعل كلّ ما في وسعها كي نكون مسرورين. حينذاك كانت الساعة الثالثة من بعد الظهر، من اليوم الرابع من شهر آب؛ وعند الساعة العاشرة والنصف ليلًا وصلنا إلى محطّة القطارات المقفرة في بودابست حيث كانت تنتظرنا مجموعة من الرجال الحازمين، الأشدّاء، الّذين رافقونا خلال خمسة عشر يومًا، لم يوفّروا خلالها جهدًا لمنعنا من تكوين فكرة واضحة عن الوضع في البلاد.

ما إن فرغنا من إنزال حقائبنا من العربة حتّى انبرى أحد هؤلاء الرجال -قدّم نفسه على أنّه مترجم- وتلا علينا اللائحة الرسميّة التي تضمّ أسماءنا وجنسيّاتنا، وجعلَنا نجيبه عليها واحدًا تلو الآخر، كما يفعل التلاميذ في المدرسة. ثمّ دعانا كي نصعد إلى الحافلة. لقد

لفت انتباهي أمران: أنّ عددهم كان كبيرًا -أحد عشر، لوفد صغير مثل وفدنا- وأنّهم جميعًا قدّموا أنفسهم على أنّهم مترجمون، مع أنّ معظمهم لا يتحدّث سوى الهنغاريّة. مضينا في المدينة عبر شوارع معتمة ومقفرة، ألبسها هطول الرذاذ ثوب الكآبة. وما هي إلّا لحظات حتّى ألفينا أنفسنا في فندق «ليبرتاد» -أحد أفضل فنادق بودابست- جالسين إلى مائدة تشغل بحجمها صالة المطعم بأكملها. على الطرف الآخر من المائدة، أخذ المترجمون يتناولون طعامهم بصمت وكآبة، وكان بعضهم يجهد في استخدام الشوكة والسكّين. أمّا الصالة فقد امتلأت بالمرايا والثريّات والأثاث المكسوّ بالقماش الأحمر الوثير، فبدت كأنّها مجهّزة بأثاث جديد، إنّما بذوق بالٍ، قديم.

أثناء العشاء، نهض رجل أشعث الشعر، وفي نظراته بعض الشرود الرومانسيّ، فألقى علينا كلمة بالهنغاريّة، تُرْجِمَتْ فوريًّا إلى ثلاث لغات. وكانت كلمة ترحيبيّة مختصرة وتقليديّة تمامًا، ثمّ تلتها في الحال سلسلة من التعليمات الصارمة، المحدّدة. أُوصِينا ألّا نخرج إلى الشارع، وأن نحمل دائمًا جوازات سفرنا معنا، وألّا نتحدّث إلى الغرباء، وأن نعيد مفاتيح غرفنا إلى مكتب الاستقبال في كل مرّة نغادر فيها الفندق، وألّا يغيب عن بالنا أنّ «بودابست الآن تخضع للأحكام العرفيّة، ولذا يُمْنَعُ التقاط الصور فيها». في تلك اللحظة، أتانا سبعة مترجمين إضافيّين، وأخذوا يتجوّلون حول الطاولة من دون أيّ غاية بيّنة، وهم يتحدّثون في ما بينهم بالهنغاريّة، بصوت منخفض جدًّا، فراودني انطباع أنّهم خائفون.

لم أكن وحيدًا في ما أحسست به، فبعد لحظة مال موريس ماير عليّ برأسه وقال: «هؤلاء يكادون أن يموتوا من الخوف».

وقبل أن نذهب إلى النوم، أخذ المرافقون منّا جوازات السفر. كنت متعبًا من الرحلة، لكنّني أَرِقٌ وأحسّ ببعض الإحباط، فحاولت أن أسلّي نفسي وأرى شيئًا من الحياة الليليّة للمدينة من خلال نافذة الغرفة المطلّة على جادّة راكوسي. وفي تلك الجادة بدت المباني الرماديّة الخَرِبَة كأنّها خالية من السكّان، وساد جوّ من الكآبة ساهم في خلقه ضوء المدينة الشحيح، ورذاذ المطر في الشارع المقفر، وصرير حافلات الترام وهي تمرّ تحت الشرر الكهربائيّ الأزرق للأسلاك. ولمّا تحضّرت كي آوي إلى الفراش، انتبهت إلى أنّ آثار القذائف لا تزال بادية على جدران غرفتي، فلم أستطع النوم وأنا أرتعد لتصوّري أنّ هذه الغرفة المليئة بالستائر الصفراء المزركشة، والمجهّزة بالأثاث القديم، والتي تفوح فيها رائحة المعقّمات القويّة، كانت متراسًا عسكريًّا في شهر تشرين الأوّل. هكذا، وأنا على هذه الحال، انتهت ليلتي الأولى في بودابست.

الدّور في محلّات اليانصيب أطول منه في المخابز

في الصباح، صارت الرؤية أقلّ قتامة. دسست مفاتيح الغرفة في جيبي، وأنا عازم على التملّص من رقابة المترجمين -الذين لن يأتوا قبل العاشرة-، فهبطت إلى بهو الاستقبال عبر الدرج. لم أستقلّ المصعد لأنّه في مقابل مكتب الاستقبال تمامًا، ولم يكن بوسعي أن أخرج منه من دون أن يراني الموظّف المناوب. كان باب الفندق الزجاجيّ الدوّار يفضي مباشرة إلى جادة راكوسي.

ليس الفندق هو المبنى الوحيد الذي غطّته السقالات، بل إن جميع مباني الجادّة كانت على هذه الحال، بدءًا من محطّة القطار التي ازدانت واجهة مدخلها بالزهور، وحتّى ضفاف الدانوب. لا يمكن لي أن أصف إحساسي الناجم عن رؤية ذلك الشارع التجاريّ الذي تتجوّل فيه حشود البشر بين الهياكل الخشبيّة. ولقد كان إحساسًا عابرًا، إذ لم أكَد أخطو خطوتين خارج الفندق حتّى أوقفني أحدهم وأمسك بي من كتفي. فُوجِئت بأنّه أحد المترجمين، فقادني بطريقة ودّيّة إلى داخل الفندق، إنّما من دون أن يفلت ذراعي.

نزل بقيّة أعضاء الوفد إلى بهو الفندق في الساعة العاشرة، وذلك حسب الموعد المبرمج تمامًا. كان موريس ماير آخرهم، فدخل إلى المطعم وعلى كتفه حقيبة رياضيّة جميلة، باسطًا ذراعيه وهو ينشد نشيد الشباب الأمميّ؛ ثمّ عانق المترجمين جميعًا، واحدًا واحدًا، بحرارة زائدة، من دون أن يتوقّف عن الإنشاد، وقد بادله المترجمون الودَّ بسرور يشوبه الارتباك. بعد ذلك جلس إلى جانبي، وثبَّت منديل السّفرة على صدره، ثمّ لكزني بركبته من تحت الطاولة وقال محاولًا ألّا يسمعه الآخرون:

– لقد خطر الأمر ببالي منذ ليلة أمس. إنّ هؤلاء الأفظاظ جميعهم مسلّحون.

ابتداءً من تلك اللحظة صرنا نعرف كيف نتصرّف معهم. لقد رافقونا كظلّنا إلى المتاحف، وإلى المعالم التاريخيّة، وإلى الاستقبالات الرسميّة، ومنعونا بحرص شديد من الاحتكاك بالناس العاديّين في الشارع. وذات مساء –في يومنا الرابع في بودابست–

ذهبنا لرؤية المنظر البانوراميّ الجميل للمدينة، من أحد أبراج حصن «صيّادي السمك». قرب الحصن توجد كنيسة قديمة، كان الغزاة الأتراك قد حوّلوها إلى مسجد، ولا تزال الزخارف الإسلاميّة تزيّن جدرانها. تجمَّعنا في مجموعة صغيرة، وابتعدنا عن المترجمين، فدخلنا الكنيسة. كانت ضخمة وتفتقر إلى التناسق، وفيها نوافذ صغيرة، عالية، تتسلّل منها حزم الضوء الصيفيّ الأصفر. على أحد مقاعد الكنيسة الأماميّة، جلست امرأة عجوز تأكل الخبز واللحم المقدّد، وهي ملتفّة بالسواد وغارقة في التفكير. بعد قليل، دخل اثنان من المترجمين وراءنا، وتبعانا بصمت عبر الأروقة، من دون أن يقولا لنا شيئًا، لكنّهما أخرجا المرأة من الكنيسة.

بحلول اليوم الخامس، أصبح الوضع لا يطاق. فلقد سئمنا زيارة الأماكن القديمة والأشباح التاريخيّة، ومللنا من الإحساس بأنّ المدينة وأناسها الذين يصطفّون بالدّور لشراء الخبز وركوب الترام، ليسوا إلّا أشياء صعبة المنال، نراها حصرًا من خلف زجاج الحافلة. حزمت أمري بعد الغداء، فطلبت المفتاح من مكتب الاستقبال وأخطرت الموظّف المناوب بأنّني متعب جدًّا وأرغب في النوم فترة بعد الظهر كلّها، ثمّ صعدت بالمصعد وبعدها على الفور نزلت الدرج مشيًا على قدميّ.

وفي أوّل موقف صادفته في الخارج، صعدت إلى إحدى حافلات الترام من دون أن أعرف وجهته. نظر الركّاب المحتشدون في الحافلة إليّ وكأنّني قادم من كوكب آخر، ولم يكن في نظراتهم شيء من الفضول أو الاستغراب، بل مزيج من التحفّظ والشكّ.

كانت بجواري امرأة عجوز تعتمر قبّعة قديمة، مزيّنة بثمار اصطناعيّة، وتقرأ بالهنغاريّة إحدى روايات جاك لندن. خاطبتها بالإنكليزيّة ثمّ بالفرنسيّة، لكنّها لم تلتفت صوبي ولم تُعِرْني انتباهًا. نزلَتْ من الحافلة في أوّل موقف توقّف عنده الترام، وهي تشقّ طريقها بين الركّاب بمرفقيها، فخلّفت لديّ انطباعًا أنّها لم تنزل هنا إلّا لأنّها خافت منّي.

خاطبني السائق بالهنغاريّة، فأوضحت له أنّني لا أتحدّث لغته، فسألني إن كنت أتحدّث الألمانيّة. كان عجوزًا بدينًا، له أنف أحمر كمُدمني البيرة، ويضع نظّارات مكسورة أصلحها بأسلاك معدنيّة. حتّى إذا قلت له إنّني أتحدّث الإنكليزيّة، كرّر عليّ عدّة مرّات جملة لم أتمكّن من فهمها، فبدا يائسًا. في نهاية الخطّ، نزلت من الحافلة، فدسّ السائق في يدي أثناء مروري قربه، قصاصة ورقيّة كُتِبت عليها جملة باللغة الإنكليزيّة: «حفظ الله هنغاريا».

بعد مرور عام تقريبًا على أحداث بودابست التي هزّت العالم، كانت المدينة لا تزال تعيش أوضاعًا غير مستقرّة. رأيت قطاعات واسعة من خطوط الترام الحديديّة التي لم تُرمَّم بعد ولا تزال مغلقة أمام حركة المرور؛ وشاهدت حشود الناس يصطفّون بأدوار لا نهاية لها من أجل شراء حاجيّاتهم الأساسيّة، وهم بملابس رثّة ووجوه واجمة. والمحلّات التجاريّة التي دُمِّرت ونُهِبت لا تزال قيد إعادة البناء. ورغم الضجيج الإعلاميّ الهائل الذي غطّت به الصحافة الغربيّة حوادث بودابست، لم أصدّق أن تكون الأضرار بهذه الفظاعة، إذ لم يبقَ من واجهات مباني مركز المدينة غير القليل

الذي لم يصِبه الأذى. فيما بعد، علمت أنّ سكّان بودابست احتموا بهذه المباني، وقاوموا الدبّابات الروسيّة أربعة أيّام بلياليها. لقد استخدمت الوحدات العسكريّة السوفياتيّة 80000- جنديّ مزوّدين بأوامر بسحق الانتفاضة- تكتيكًا بسيطًا وفعّالًا يتمثّل في نصب الدبّابات أمام المباني وتدمير واجهاتها. لكنّ المقاومة أظهرت بطولة كبيرة، إذ كان الأطفال يخرجون إلى الشوارع، ويصعدون إلى برج الدبّابة فيلقون في داخلها زجاجات البنزين المشتعلة. تشير المعلومات الرسميّة إلى أنّ عدد القتلى في هذه الأيّام الأربعة بلغ خمسة آلاف قتيل، وعدد الجرحى عشرين ألفًا، لكنّ جسامة الأضرار توحي بأنّ عدد الضحايا أكبر بكثير. يُضاف إلى ذلك أنّ الاتّحاد السوفياتيّ لم يقدّم أرقامًا عن حجم خسائره.

بزغ فجر الخامس من تشرين الثاني على المدينة وهي مدمّرة، وظلّت البلاد في حالة من الشلل التامّ مدّة خمسة أشهر متتالية، لم يتمكّن السكّان خلالها من البقاء على قيد الحياة إلّا بفضل قطارات التموين والإمداد التي أرسلها إليهم الاتّحاد السوفياتيّ والديموقراطيّات الشعبيّة الأخرى. إنّ أدوار الانتظار اليوم أقصر من ذي قبل، ومتاجر المواد الغذائيّة تشرع في فتح أبوابها، لكنّ سكّان بودابست لا يزالون يعانون من آثار الكارثة. يُلحَظ أنّ الدّور في محلّات بيع اليانصيب -التي تشكّل مصدرًا من مصادر دخل نظام كادار، ومكاتب الرّهونات التي تملكها الدولة- أطول منه في المخابز. أخبرني أحد الموظّفين الرسميّين أنّ مؤسّسة اليانصيب، في حقيقة الأمر، هي مؤسّسة غير مقبولة في النظام الاشتراكيّ، وقال

لي موضحًا: «لكنّنا لا نستطيع فعل شيء، فهي تحلّ لنا مشكلة كلّ يوم سبت». والأمر نفسه ينطبق على مكاتب الرّهونات، ولقد رأيت على باب أحدها امرأة تقف بالدّور ومعها عربة أطفال مليئة بأدوات المطبخ.

إنّ الخوف وانعدام الثقة يبدوان في كلّ مكان، وذلك من جهة الحكومة كما من جهة الناس. هناك عدد كبير من الهنغاريّين الذين عاشوا في الخارج حتّى العام 1948، وهم وأبناؤهم يتحدّثون لغات الأرض كلّها. لكنّه يصعب عليهم التحدّث إلى الأجانب، فهم يعتقدون أنّه ما من أجنبيّ يستطيع دخول بودابست، في هذا الوقت، إلّا ويكون مدعوًّا بشكل رسميّ من طرف الحكومة؛ ولذا لا يجرؤون على الحديث معه. إنّ الناس جميعًا أينما كانوا، في الشوارع أو في المقاهى أو في حدائق جزيرة مَرْغَريتا الهادئة، لا يثقون بالحكومة ولا بضيوفها.

أمّا الحكومة فإنّها تحسّ بأنّ المعارضة لا تزال مستمرّة، فعلى الجدران في بودابست ثمّة شعارات مكتوبة بالخطّ العريض: «أعداء الثورة المستترين: احذروا سلطة الشعب»، إضافة إلى شعارات أخرى تتّهم إمري ناجي بالمسؤوليّة عن كارثة تشرين الأوّل. إنّ ناجي كالوسواس، يستحوذ على تفكير الحكومة بمجمله. فبينما هو يعاني مرارة المنفى القسريّ في رومانيا، فإنّ حكومة كادار لا تكفّ عن معاداته بملء الجدران بالشعارات المندّدة به، وكذلك بنشر الكرّاسات وتنظيم المظاهرات المناوئة له. مع ذلك، فإنّ جميع من تمكنّا من الحديث معهم -من عمّال وموظفين وطلّاب

وحتّى بعض الشيوعيّين- يأملون عودة إمري ناجي إلى البلاد. عند المغيب، وبعد أن جلت في أرجاء المدينة كلّها، ألفيت نفسي على ضفّة الدانوب، أمام أنقاض جسر إليزابيت الذي فجّره الألمان بالديناميت. وهناك انتصب تمثال الشاعر شاندور بيتوفي، تفصله عن مبنى الجامعة ساحة صغيرة مليئة بالزهور. منذ عشرة أشهر -في الثالث والعشرين من أكتوبر- عبَرت مجموعة من الطلاب هذه الساحة، وهم يهتفون مطالبين بطرد الوحدات العسكريّة السوفياتيّة. ثمّ تسلّق أحدهم التمثال وهو يرفع العلم الهنغاريّ، فألقى خطابًا دام ساعتين. وعندما نزل عن التمثال، كانت الجادّة قد امتلأت بسكّان بودابست، رجالًا ونساءً، وهم ينشدون نشيد بيتوفي، تحت الأشجار التي عرّاها الخريف. هكذا بدأت الانتفاضة في المدينة.

نزولًا مع الدانوب وبعد كيلومتر واحد من جزيرة مَرْغَريتا، هناك قطاع من الأحياء البروليتاريّة المكتظّة بالسكّان حيث يعيش عمّال بودابست ويموتون وهم مكدّسون فوق بعضهم. في تلك الأحياء، ثمّة حانات مطبقة الأبواب، يعمّ الدفء فيها ويعبق جوّها بالدخان، ويحتسي زبائنها البيرة بكؤوس ضخمة الحجم، وسط جلبة الحديث بالهنغاريّة، الشبيهة باللعلعة المستمرّة لرصاص البنادق الآلية. في مساء الثالث والعشرين من تشرين الأوّل، كان هؤلاء الزبائن في هذه الحانات، ولمّا شاع الخبر أنّ الطلّاب بدأوا الانتفاضة، تركوا كؤوس البيرة، وطفقوا يصعدون ضفّة النهر إلى أن بلغوا ساحة الشاعر بيتوفي، فانضمّوا إلى المنتفضين. لقد جلتُ

بنفسي على تلك الحانات عند المساء، وتبيّن لي أنّ بذرة الانتفاضة لا تزال حيَّة فيها، رغم حالة الطوارئ المفروضة والتدخّل السوفياتيّ والهدوء الظاهريّ الذي يعمّ البلاد. وحينما كنت أدخل إلى أيٍّ من هذه الحانات، كانت جلبة الزبائن تتحوّل إلى دمدمة صمّاء، مبهمة، ولا يعود أحد يرغب في الحديث. وحينما يصمتون -خوفًا أو احترازًا- كان لا بدّ لي من الذهاب إلى المراحيض لمعرفة فيمَ يفكّرون. وهناك، على الجدران، وجدت ضالّتي: بين الرسوم البورنوغرافيّة التي يرى المرء مثلها في كل مراحيض حانات العالم، رأيت شعارات تَذْكُر كادار بالاسم، وتحتجّ عليه احتجاجًا لا يُعرف صاحبه، لكنّه معبّر جدًّا. هذه الشعارات تمثّل شهادة معقولة عن الوضع في هنغاريا: «كادار قاتل الشعب». «كادار خائن». «كادار كلب الروس».

عاهرة تقول لي: «كنت طالبة شيوعيّة»

أثناء العشاء، أسرَرْتُ لموريس ماير بمغامراتي، فضحك. كنت قد أمضيت ثلاث ليال لم أنمْ خلالها في الفندق، وأفلحت في الحصول على موادّ غزيرة توثّق الحياة الليليّة في بودابست. حزنت لمشهد العاهرات، وللطريقة البائسة التي تسكر بها النساء حتّى مطلع الفجر؛ واستُنْفِرْتُ بعض الشيء لإحساسي بالخطر الذي يعاينه المرء في الحانات الليليّة. بعد العشاء وفي تلك الليلة أخذني موريس ماير لأصحبه في مغامراته الخاصّة به.

إنّ الدعارة في هنغاريا محظورة قانونيًّا، كما في البلدان الاشتراكيّة الأخرى جميعًا، لكنّ ما رأيته منها في بودابست لم أرَه

في أيّ مكان آخر، فهي فيها أشدّ إيلامًا ومأساوية وأقلّ مردودًا من الناحية المادّيّة. وقعنا على فتاة -ناتاليا تاردوس- عمرها ثمانية عشر عامًا. أخذتها النشوة وهي تسرد علينا حياتها وتجاربها الأيروتيكيّة بخلاعة بدا فيها الكثير من المازوخيّة. ولم تفعل الأمر مجّانًا.

- فيمَ ترغبان؟ أنا أضيّع وقتي في الحديث معكما، ومن الإنصاف أن أتقاضى شيئًا مقابل هذا الوقت الضائع، قالت لنا.

حدَّدت السعر بنفسها مسبَّقًا، وتقاضته سلفًا، وفقًا للأصول: خمس فلورينات، أي نصف دولار.

كانت ناتاليا تاردوس طالبة تدرس اللغات والآداب، وهي تتحدّث الإنكليزيّة والفرنسيّة والروسيّة بطلاقة. وقبل أحداث تشرين الأوّل كانت تنتمي إلى منظّمة الشبيبة الشيوعيّة، مثل أخيها الأكبر، اللاجئ إلى النمسا الآن. أمّا والدها فقد كان عاملًا في أحد مصانع الألبسة وعضوًا في الحزب الشيوعيّ. كانوا جميعهم يتقاضون رواتب لا بأس بها، لكنّ الوضع الاقتصادي كان صعبًا، فبدأت ناتاليا تمارس الدعارة وهي في الخامسة عشرة من عمرها، مع أصدقاء لها في الجامعة. كان ذلك وسيلة سهلة كي تشتري بعض احتياجاتها من السوق السوداء. في الثالث والعشرين من تشرين الأوّل حمل والدها السلاح ضدّ النظام، وأعلن أنّه لم ينضمّ إلى الحزب الشيوعيّ إلّا لأنّ أعضاءه يتمتّعون ببعض الامتيازات في ظلّ حكومة راكوسي؛ لكنّه قُتِلَ في معركة بودابست. ألْفَتْ ناتاليا تاردوس نفسها وحيدة مع والدتها، من دون رقيب عليها

أو مستقبل ينتظرها، فتخلّت نهائيًّا عن حياتها الطلّابيّة ونشاطاتها السياسيّة والتحقت بالحياة الليليّة التعسة في بودابست.

ليست ناتاليا إلّا حالة من حالات كثيرة مشابهة. ولقد رأينا العديد منها بين الصبايا القليلات -أكبرهن في الخامسة والعشرين- اللواتي يتقنَّ الإنكليزيّة أو الإسبانيّة أو الفرنسيّة. بعضهنّ كنّ عاملات، ويعشنَ مع أُسرهنّ، فيعوّضنَ قلّة الراتب الشهريّ بممارسة الدعارة من حين إلى آخر. يعثر المرء على هؤلاء الصبايا، بعد منتصف الليل، في تلك الحانات التي يعبق جوّها بالدخان، وتَعْزِفُ فيها فرق الكمان ألحانًا شجيّة، حتّى مطلع الفجر. لقد رأينا مجموعة من هؤلاء الصبايا في مشاجرة من تلك المشاجرات العنيفة مع الشرطة، وهي في المجمل عاجزة عن رقابة شعب يعيش المرارة ولا أفق أمامه.

في تلك الليلة، اعتبرتُ أنّ مغامراتي في بودابست انتهت. فعدنا إلى الفندق في الرابعة صباحًا، وإذا باثنين من المترجمين المزيَّفين ومعهم مترجم فعليّ، ينتظرونا في البهو وهم جالسون. وبكلّ برود، روى لهم موريس ماير ما كنّا قد رأيناه، وأسهمتُ أنا، من جهتي، في بعض جوانب الرواية. حينئذ رأينا الحزن على وجوه الرجال الثلاثة -لأولّ مرّة منذ وصولنا- وتبدّد منها ذهولهم المعتاد. في اليوم التالي، لم يأتِ حرّاسنا لتناول الفطور معنا، أولئك الذين كانوا يتبعوننا كظلّنا، ولم نعد نراهم قطّ. لكنّ المترجم ذا النظرة الشاردة الرومانسيّة -الذي كشف لنا لاحقًا أنّه مُنَظّر في الماركسيّة- عاد

إلينا وألقى على مسامعنا كلمة أصلح فيها الموقف، وقدّم لنا اعتذارًا معقولًا عن إلحاق المرافقين المدنيّين المسلّحين بنا، وقال:

- أعتقد أنّكم تتفهّمون أوضاعنا. إنّ الأحوال في بودابست صعبة الآن، ونحن نرى أنفسنا مضطرّين لحماية ضيوفنا.

منذ ذلك اليوم تبدّل الحال، فصار المترجمون أنيسين لطفاء، وأصبح بوسعنا أن نتصرّف بحرّية مطلقة. شُكّلَتْ هيئة رسميّة، شارك فيها اثنان من أعضاء اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ، تولّت مهمّة الإجابة عن أسئلتنا طوال إحدى عشرة ساعة -في مكان هادئ بالقرب من بحيرة بالاتون-، وناقشنا معها الأوضاع وأوجهها الأكثر حساسيّة. قدّمونا إلى يانوش كادار، ثم قادونا لسماع خطبته. وهكذا تمكّنت من الحضور إلى المكان عينه الذي ألقى فيه كادار خطابًا في العشرين من شهر آب.

كادار: «أعرف أنّ من ينظرون بعين الرضا إلى حكومتي قلائل جدًّا»

إنّ «وِيبِست» منطقة زراعيّة مهمّة، وقد لعبت دورًا كبيرًا في حوادث تشرين الأول. في اليوم الأوّل أبدت عداءها للنظام، لكن عندما حاول ملّاكو الأراضي السابقون استثمار الانتفاضة لصالحهم واستعادة أراضيهم المصادرة، أيّدَ فلّاحوها كادار، ولم يُظهروا أيّ مقاومة في وجه الدبّابات السوفياتيّة. ولذا فإنّ كادار -كان يبحث في أوساط الفلّاحين عن التأييد الذي لا يحظى به في أوساط العمّال- سار على الطريق المتعرّجة المؤدّية إليها، وقطع الكيلومترات التي تفصلها عن القصر الحكوميّ، بغية الاحتفال فيها بالذكرى السنويّة لإقرار الدستور الاشتراكيّ في البلاد.

دخلنا قرية صغيرة زاهية بحلّة الاحتفال، ومزدانة بالزهور والأعلام ولافتات الدعاية الرسميّة، لكنّها ترزح تحت حراسة أمنيّة مشدّدة. على الطريق، خلّفْنا وراءنا قوافل الشاحنات الحكوميّة المحمّلة بالفلّاحين، ومواكب السيّارات الروسيّة الحديثة التي تقلّ المسؤولين الرسميّين. في الساحة الصغيرة الخالية من التماثيل والتي تحيط بها منازل زاهية الألوان، كان الأطفال القرويّون يتناولون المثلّجات وهم متحلّقون حول فرقة موسيقيّة ريفيّة تعزف ألحان الفالس الرومانسيّة. في نهاية شارع ضيّق مليء بالمطاعم التي تبيع البيرة والنقانق وسندويشات الجامبون، بدا ملعب كرة القدم، وكان بلا مدرّجات. وأقيمت فيه منصّات خشبيّة وُضِعت عليها كراسٍ أُحضِرَت من المدارس الرسميّة، وعُلّقت فيها ثلاثة مكبّرات للصوت وُصِلَت بسلسلة من المكبّرات الأخرى التي وُزّعت في أرجاء القرية كلّها. ولكي يدخل المرء إلى الملعب، كان لا بدّ له من بطاقة دخول خاصّة. أمّا بقيّة مَن في القرية، فقد استمعوا إلى الخطاب، وهم تحت الخيام حيث تُوزّع عليهم مجّانًا أطعمة ومشروبات خالية من الكحول. صعدنا إلى المنصّة وجلسنا إلى جانب أعضاء السلك الدبلوماسيّ، الممثّلين للدول الاشتراكيّة الأخرى. وبعد قليل، بدأت الفرقة الموسيقيّة العسكريّة تعزف النشيد الوطنيّ الهنغاريّ، ثمّ دخل أعضاء الحكومة، وكانوا بلباس غير رسميّ، يلهثون من شدّة الحرّ، ويتقدّمهم رجل عمره نحو 49 عامًا، غزا الصلع مقدّمة رأسه، وعليه سترة عاديّة من قماش لونه سكريّ، وربطة عنق متواضعة، خضراء، حيكت من خيوط الحرير،

وكان يبدو مؤثّرًا في طيبته وألفته: يانوش كادار. بدأت مجموعة من الصفّ الأماميّ بالتصفيق الحادّ، فحذا حذوها بقيّة الحضور، إنّما من دون حماسة شديدة. والأمر نفسه جرى خلال الاحتفال، وذلك حتّى في اللحظات الأكثر حرارة من الخطاب.

قبل أن أتعرّف إلى كادار، لم أكن أعلم بوضوح كيف يكون حال العامل الحقيقيّ حين يتسلّم السلطة. إنّ تواضعه العفويّ، وزهده المطلق بالرسميّات، ومظهره البسيط، الشبيه برجل يذهب أيّام الأحد إلى حديقة الحيوانات كي يرمي الفستق للفيلة، هي أشياء تهتزّ لها المشاعر بكلّ بساطة. لمّا أتّى دوره في الكلام، خلع سترته واقترب من الميكروفونات المثبّتة أمامه، فتنبّه إلى أنّه قد فقد مشبك الكمّ الأيمن لقميصه، وجال حوله بنظره بحثًا عنه، من دون أن يفقد ذرّة من كبريائه أو أن يصاب بالإحراج. بعد ذلك، شمَّر عن ساعديه حتّى المرفقين، وتناول قليلًا من الماء ثمّ ألقى خطابًا مختصرًا، مباشرًا، رُتِّبَت أفكاره ترتيبًا حسنًا، ولم ألحظ فيه شيئًا مهمًّا حقًّا سوى أمر واحد، كان الأصدق، وهو الحقيقة المرّة التي تعبّر عنها الجملة الأولى: «أعرف أنّ من ينظرون بعين الرضا إلى حكومتي قلائل جدًّا».

إنّ ذلك الخطاب، والمؤتمر المرهق الذي عُقد مع الهيئة الرسميّة -التي قدّمت لنا رواية صريحة عن الوضع، لكنّها مُخفّفة-، والأحاديث المختلفة مع الناس في بودابست، والاحتكاك المباشر مع رئيس الحكومة، وإن كان عابرًا، والدراسة المتبصّرة، البعيدة عن العواطف، للواقع الهنغاريّ، جميعها سمحت لي بأن أتوصّل

إلى خلاصة: لو أتى يانوش كادار في ظروف أخرى، لكان رجل هنغاريا بحقّ. أعتقد أنّه يتمتّع بالذكاء والكفاءة والإخلاص، ويتميّز بالحسّ الإنسانيّ بشكل ملحوظ، لكنّه عالق في مأزق كبير، ومقيّد من يديه ورجليه إلى وضع سياسيّ لا مخرج منه، وفي ظروف هائلة الصعوبة. إنّ الشعب لا يغفر له -وهو يعرف ذلك- استدعاءه الوحدات العسكريّة السوفياتيّة. لكنّه لو لم يفعل ذلك، لما كان في السلطة الآن، لا هو ولا الحزب الشيوعيّ، ولا أيّ شيء آخر يشبه الديمقراطيّة الشعبيّة. «لقد ضحّى كادار بنفسه. وعندما تهدأ الأوضاع وتتماسك، سنضطرّ إلى تنحيته جانبًا كي نكسب ثقة الشعب. بهذا المعنى ومن وجهة نظرنا، فإنّ كادار بطل»، قال لي أحد المسؤولين الشيوعيّين.

يكاد الأمر لا يُصدَّق لكنّه يحدث بالفعل: فيانوش كادار يلعب اللعبة نفسها التي انتقد عليها نظام ماتياس راكوسي، انتقادًا عنيفًا منذ خمس سنوات. وذلك هو التناقض الذي وضعته فيه الظروف، ولا بدّ أنّه يحسّ من جرّائه بالمرارة. في العام 1952 -عندما ارتفع مستوى المعيشة بنسبة 50٪ مقارنة بالسنوات التي سبقت الحرب-، تحمّس قادة تلك المرحلة المتهوّرون، وطمعوا بنجاح الخطّة الخمسيّة الأولى، فقرّروا تسريع عجلة تطبيق الاشتراكيّة، وتنفيذ الخطّة الخمسيّة الثانية في ثلاث سنوات. فُرِضَت ضرائب باهظة على الفلّاحين من أجل تمويل استثمارات ضخمة في الصناعة، وأُصدِر مرسوم يقضي قسرًا بتحويل ملكيّة الأراضي الزراعيّة إلى ملكيّة جماعيّة. لكنّ الآلات الزراعيّة توقّفت عن العمل

في الحقول، لأنّ اليد العاملة المتخصّصة توجّهت إلى المعامل لتُشبع نهم الصناعة الهائل. وخلال عام واحد زاد عدد العمّال في بودابست بنسبة ٪8، بيد أنّ الحكومة لم تتحسّب لهذه الزيادة ولم تستطع بالتالي أن تحلّ المشكلة الناشئة من جرّاء ذلك: اكتظاظ السكّان وقلّة المساكن. كما أُهملت صناعة المواد الاستهلاكيّة لصالح الصناعات الثقيلة. ضاق صدر العمّال الذين أيّدوا الخطّة الخمسيّة الأولى بحماسة، وبدأوا يتململون، وذلك بعد أن أحسّوا بالاختناق في ظلّ الوضع الجديد، وتكدّسوا في غرف ضيّقة، بلا ملابس ولا أحذية، مسلّحين بوعي سياسيّ كان النظام نفسه قد غرسه في نفوسهم. تنبّه اثنان من أعضاء الحزب الشيوعيّ إلى خطورة الوضع، فدقّا ناقوس الخطر. كان أحدهما مسؤولًا سياسيًّا بارزًا: إمري ناجي؛ أمّا الآخر فكان من القاعدة الحزبيّة، ابنًا لأحد العمّال المتواضعين، وكان هو نفسه عاملًا متخصّصًا في تجميع الآلات الثقيلة، ومخضرمًا في المعارضة، عصاميًّا، عقائديًّا، شغوفًا بحلّ الكلمات المتقاطعة، ومؤدّيًا بارعًا للأغاني الشعبية في حفلات الأصدقاء: يانوش كادار. صرّح كلاهما أنّ ما تفعله الحكومة ليس إلّا حماقة، فلم تردّ عليهما بالكلام بل بفعل ملموس، إذ اعتقلتهما ووضعتهما وراء القضبان. ضاق الخناق على الأعناق أكثر، فجاهر المثقّفون الماركسيّون بالأفكار نفسها التي نادى بها ناجي وكادار، لكنّهم لاقوا المصير نفسه. رأى الطلّاب أنفسهم مهدّدين بفقدان حقوقهم، والعمّال الذين حاولوا الاحتجاج، وشى بهم رفاقهم الشيوعيّون، ففُصِلوا من عملهم واقتيدوا إلى السجون. وهكذا فرضَ

الأمن السياسيّ الاستقرار عن طريق الترهيب. أمّا في الخارج، فقد كانت إذاعة «أوروبّا الحرّة» [التي تموّلها الولايات المتّحدة]، تبشّر الهنغاريّين بتحويل بلادهم إلى فردوس أرضيّ، لا مثيل له، فصدّق الشعب ليأسه دعايتها تصديقًا كاملًا. إنّ ملّاكي الأراضي السابقين وهم في مساكنهم القديمة، والكاردينال جوزيف ميندسِنتي وهو في سجنه، والرجعيّة الهنغاريّة المقتدرة، المتسلّلة إلى كلّ مكان، كانوا جميعًا يتربّصون بالأوضاع بكلّ خبث، وينتظرون اللحظة الملائمة للانقضاض على خصومهم. في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأوّل من العام 1956، كان عدد العمّال الذين يرزحون تحت وطأة الاعتقال مساويًا لعددهم في المعامل. دبّت الحماسة في نفوس مجموعة من الطلّاب في بودابست، تحت تأثير الوثبة الإصلاحيّة الشجاعة، التي حصلت في بولونيا، فنظّموا احتفالًا في ذكرى شاعر هنغاريا القوميّ بيتوفي، واستغلّوا المناسبة للمطالبة بإصلاح مقرّرات الماركسيّة في الجامعة وتعليم اللغة الروسيّة، وانسحاب القوّات السوفياتيّة، ومراجعة ميثاق حلف فرصوفيا، واسترداد مناجم اليورانيوم التي يستثمرها الاتّحاد السوفياتيّ، وطالبوا بتعدّديّة الأحزاب السياسيّة، وإزالة النجمة الحمراء من العلم ومن شعار البلاد ومن الأبنية الحكوميّة، وأخيرًا إلغاء الأمن السياسيّ.

وقتها كانت الساعة 11:25 من صباح يوم خريفيّ رائع، من أيّام خريف بودابست العاطر.

خرج الناس إلى الشوارع يهتفون مطالبين برحيل القوّات

السوفياتيّة، فرحلت القوات السوفياتيّة. فُتِحَتِ السجون لتحرير ضحايا القمع، فخرج معهم مرتكبو الجنح والجرائم. وعبْرَ الحدود النمساويّة غادر البلاد 100000 هنغاريّ؛ كانوا أناسًا شرفاء، وعمّالًا قست عليهم الظروف، ومراهقين أغرتهم وعود إذاعة «أوروبّا الحرّة»، إنّما كان بينهم أيضًا المجرمون العاديّون جميعًا؛ جميعًا وبلا استثناء.

كلّ من ينتعل حذاء أصفر عُوقِب بلا محاكمة

لقد وُجِّهَتْ أعمال العنف، في المقام الأوّل، إلى رجال الأمن السياسيّ. أمّا الشرطة العاديّة المكلّفة بحفظ الأمن والمرور -هم مواطنون عاديّون، وموظّفون في سلك الشرطة-، فقد فَتَحَتْ مخازنها ووزّعتْ أسلحتها على عامّة الناس، فيما تكفّل ببقيّة الإمداد ما خلّفه الجنود السوفيات من عتاد عند رحيلهم. لقد عاش جنود الوحدات السوفياتيّة مع الهنغاريّين يوميًّا مدّة ثماني سنوات من الاحتلال، استوعبوا خلالها مشكلاتهم الحياتيّة، وقبل أن ينسحبوا من بودابست، تركوا وراءهم الكثير من الأسلحة، كان من ضمنها دبّابتان. أمّا الأمن السياسيّ فلقد قُضِيَ عليه قضاءً تامًا. كان جهاز المخابرات قد اشترى لعناصره منذ عدّة أشهر دفعة كاملة من الأحذية، تميّزت بشكلها ولونها الأصفر. سرى الخبر بين الجماهير المنتفضة وعلمت أنّ كلّ من ينتعلون أحذية صفراء مخبرون. فصبّوا جام غضبهم عليهم: قضوا على كلّ من كان ينتعل حذاء أصفر، وبذا تمت تصفية ٤٢٪ من عناصر جهاز المخابرات.

نُهِبَت المحلّات والمتاجر، فارتدى الشعب ملابس جديدة،

وأقام مآدب عامرة في الشوارع. لقد كانت المسألة مسألة شهوات قديمة متراكمة، كان يمكن للحزب الشيوعيّ أن يستثمرها لصالحه، لو كان معافى. لكنّ الحزب عمليًّا لم يكن موجودًا. فالمناضلون الشرفاء كانوا في السجون. أمّا الآخرون فقد انضمّوا إلى الانتفاضة، بعد أن ضاقوا ذرعًا بالدوغمائيّة والتعصب الحزبيّ والاضطهاد داخل البلاد. وهناك غيرهم -مثل والد ناتاليا تاردوس- ممّن أعلنوا أنّ انضمامهم للحزب كان بدافع المصلحة الشخصيّة. وثمّة أقليّة أوصدت أبواب بيوتها على نفسها إلى أن عادت الوحدات العسكريّة السوفياتيّة، فخرجت وناضلت إلى جانبها كتفًا إلى كتف. وهؤلاء هم اليوم أفضل سند لكادار. وهناك أيضًا بعض الشيوعيّين المخلصين الذين أحسّوا بالخديعة، فوقفوا موقف المندهش ممّا جرى. قال لي أحدهم: «لقد أقنعتنا الحكومة أنّ الشعب يقف إلى جانبنا. وفي شهر تشرين الأوّل اكتشفنا زيف ذلك». كما أنّ أحد المناضلين الشيوعيّين الذين يشغلون الآن منصبًا مهمًّا، أوضح لي لماذا لم يخرج ليدافع عن النظام: «كانت أمّي خائفة عليّ جدًّا، فمنعتني من الخروج إلى الشارع».

لم يكن الشعب معارضًا للاشتراكيّة بحدّ ذاتها، بل كان معارضًا لنظام القمع. ولذا فقد تذكّر إمري ناجي بشكل مثير للاندهاش، واستدعاه كي يتولّى زمام السلطة. كان يانوش كادار من بين أعضاء حكومته، وقد توجّه في مساء الأوّل من تشرين الثاني إلى المتمرّدين بخطاب لا يُنسى، مع أنّه هو نفسه اختار الآن أن ينساه.

في تلك اللحظة، كانت الرجعيّة -الأكثر قوّة من الحزب

الشيوعيّ، والأكثر وعيًا لمصالحها، والأكثر خبرة في السياسة- قد استثمرت الانتفاضة لصالحها. دخلت بودابست في حالة من الفوضى، وتسيّبت الحدود مع النمسا؛ ففقد ناجي ونظامه السيطرة على الوضع، حتّى إنّه توجَّه بخطاب مرتبك إلى الغرب، طلب فيه النجدة كي يبقى في السلطة. وخلال يومين تَشكّل أربعة عشر حزبًا سياسيًّا، مِن بينها حزب مندثر منذ أيام الأميرال هورتي. وأُنشِئت جمعيّة للكشّافة تمتّعت بمقدار من السلطة أهَّلها لأن تطالب بإحدى الحقائب الوزاريّة. أمّا الكاردينال ميندسِنتي فقد طالب بإعادة الأراضي المصادرة إلى الكنيسة، وتحضّر ملّاكو الأراضي السابقون لاسترداد ملكيّاتهم الخاصّة تحت تهديد السلاح. أدرك إمري ناجي أنّه لم يعد يمتلك السلطة، وأنّ الرجعيّة سيطرت على الانتفاضة، وأنّه هو نفسه سيُطرَد من الحكومة، فقام بمناورة، لا تزال مجهولة في الغرب حتّى الآن واطّلعتُ أنا عليها من مصادر رسميّة في هنغاريا: اجتمع بأصدقائه السياسيّين في مقرّ إقامته في بودابست، وأسّس الحزب الشيوعيّ السرّيّ، واقترح له برنامجًا معارضًا كي يبدأ تطبيقه في اليوم التالي على الفور. كان يانوش كادار حاضرًا في هذا الاجتماع، فاتّخذ قرارًا متسرّعًا وطائشًا بإجراء انقلاب على ناجي: انشقّ عنه، وأنشأ حزب العمّال والفلّاحين مع سبعة عشر عضوًا آخرين، ثمّ اتّصل هاتفيّا بالسفارة السوفياتيّة طالبًا الدعم. تعيَّن عليه أن يلحّ في الاتّصال وأن يكرّره مرّتين: لم يكن السفير السوفياتيّ يرغب في الردّ على الهاتف، لأنّه كان طريح الفراش ويعاني من نزلة برد.

من بين كلّ مائة عامل، لا يدافع عن النظام سوى عشرة

إن لبّ المشكلة يكمن في إخراج كادار من مأزقه. من المؤكّد أنّه والسوفيات كانوا سيستفيدون من انسحاب لائق للوحدات السوفياتيّة المرابطة على أراضي هنغاريا، لكنّ الغرب لم يقترح عليهم صيغة تحفظ ماء وجههم، ومن دفع ثمن ذلك كلّه هو الشعب الهنغاريّ. إنّ البلاد ترزح تحت وطأة أوضاع بائسة، إذ ليس لدى الهنغاريّين صناعة مستقلّة، فهم يستوردون الحديد كي يتمكّنوا من تصنيع الآلات التي يصدّرونها لاحقًا إلى الخارج بغية الحصول على العملة الصعبة. أمّا مناجم اليورانيوم، فهي لا تزال بين أيدي السوفيات. «ليس بوسعنا فعل أيّ شيء في هذا الصدد، إذ ليس لدينا رأس المال الكافي لاستثمار هذه المناجم»، قيل لنا. إنّ عبء إعادة الإعمار يقع بكامله على كاهل الفلّاحين، والاتّحاد السوفياتيّ لديه من المشكلات الداخليّة ما يفوق قدرته على التنكّب بأعباء النهوض بهنغاريا.

لقد كان الإجراء الأوّل الذي اتخذه نظام كادار هو زيادة شاملة في الرواتب والأجور. وطوال خمسة أشهر متتالية، دُفعت تلك الرواتب لأصحابها رغم أنّ قوى الإنتاج في البلاد كلّها كانت معطّلة ومشلولة. الآن، بدأت حركة الإنتاج تعود قليلًا، لكنّ الرواتب تتجاوز في مستواها حقيقة الواقع الاقتصاديّ، والحكومة لا تجرؤ على تخفيضها من جديد، والعمّال لا يؤمنون بإعادة الإعمار. إنّ جوّ عدم الثقة يسود في المعامل، والعمّال يعطّلون الاقتصاد، وعدد المنضمّين إلى الحزب الشيوعيّ -الذي كان قبل

تشرين الأوّل 800000 عضو- انخفض إلى 350000. ولا يحافظ النظام على الأمن والاستقرار إلّا عن طريق العمّال الذين يثق بهم، فيُسَلَّم كلّ واحد منهم رشّاشًا كي يحمي السلطة. لكن حتّى في هذه العمليّة، فإنّ عدم الثقة ملحوظ، لأنّه من المستحيل معرفة من قد ينقلبون على النظام ويستخدمون هذا السلاح ضدّه. في أحد المعامل التي زرناها قبل يومين من مغادرتنا البلاد، كان هناك 200 عامل. عشرون منهم أعضاء في الحزب، ومن بين هؤلاء لم تجرؤ الحكومة على تسليح غير سبعة. تلك هي نسبة الثقة في الحكومة.

ولمّا كان من العسير معرفة من يقف فعلًا في معسكر النظام، وبماذا يفكّر كلّ فرد فيه، فضلًا عن أنّ عيبه الرئيسيّ يكمن في ادّعائه الشعبيّة وهو غير شعبيّ على الإطلاق؛ فإنّ الحكومة تتّكل -وتطلب ذلك في بياناتها وخطاباتها وبلاغاتها- على المواطنين الثقات، الموالين لها فعلًا، كي يشوا بالمعارضة السريّة. إنّ الجوّ الذي يولّده هذا النظام القائم على الوشاية والتجسّس والترصّد النفسيّ، هو ببساطة جوّ مريع. في بودابست لا أحد يثق بأحد، وبذرة ذلك تُرى في الجامعة، فقبل شهر تشرين الأوّل كانت الشبيبة الشيوعيّة تعدّ 750000 عضو، أما الآن فإنّها لا تعدّ غير 150000. تتميّز الأقلّيّة الموالية للحكومة بأنّ لديها سلاح الوشاية بمعارضي النظام.

لقد أُعِيد تدريس مقرّر الماركسيّة منذ شهرين، بعد أن كان قد أُلغِي سابقًا. التقينا في الجامعة بمجموعة من الطلاب الماركسيّين الذين لا يزالون على إيمانهم بالماركسيّة لكنّهم يعارضون كادار،

وأوضحوا لنا سبب تمرّدهم: «نحن ماركسيّون لأنّنا درسنا الماركسيّة بأنفسنا. لقد شاركنا في انتفاضة تشرين الأوّل، لأنّ الماركسيّة شيء، والاحتلال الروسيّ ونظام راكوسي المرعب هما شيء آخر. إنّ الدروس التي تُعَلَّم في الجامعة لا علاقة لها بالماركسيّة، فالنصّ الرسميّ المقرّر فيها هو تاريخ الحزب الشيوعيّ السوفياتيّ».

أحد المسؤولين الشيوعيّين قال لي: «إنّ تقريرك سوف يلحق بنا ضررًا بالغًا، لكنّه قد يساعدنا!»

إنّ كادار لا يعرف ما يجب عليه أن يفعل. فمنذ اتّصاله الهاتفيّ المتعجّل الذي استدعى فيه القوّات السوفياتيّة، تورّط حتّى النخاع بقضيّة شائكة، واضطرّ أن يتخلّى عن قناعاته كي يمضي إلى الأمام. لكنّ الظروف تعاكسه وتشدّه إلى الخلف. لقد أقحم نفسه في الحملة على ناجي واتّهمه بأنّه باع نفسه للغرب، لأنّها الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها تبرير الانقلاب الذي قام به بنفسه. ولمّا لم يكن بوسعه رفع الأجور، وليس في الأسواق موادّ استهلاكيّة، فضلًا عن أنّ الاقتصاد مدمَّر، ومعاونوه في الحكم عديمو الخبرة والكفاءة، والشعب لا يغفر له استدعاءه الروس، وهو لا يستطيع فعل المعجزات، فإنّه أيضًا لا يستطيع التخلّي عمّا التزم به ولا التراجع عنه؛ فلم يتبقَّ أمامه إذًا سوى الزجّ بالناس في السجون والإبقاء -خلافًا لقناعاته- على نظام أكثر رعبًا وفظاعة من النظام السابق الذي حاربه بنفسه. في ليلة وداعنا في مطعم الفندق، كنت أتحدّث مع أحد المسؤولين الشيوعيّين عن الصراحة والوضوح

اللذين أنوي أن أكتب بهما هذا التقرير، فأحسّ المسؤول بشيء من الدهشة، لكنّه فكّر بالأمر مليًّا وقال بعد قليل:

– إنّ ذلك سوف يُلحق بنا ضررًا بالغًا، لكنّه قد يساعدنا أيضًا على أن نتواضع قليلًا ونعترف بأخطائنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

غابرييل غارسيا ماركيز

رحلة إلى البلدان الإشتراكيّة

رحلة مثيرة وصادقة وغريبة عن عبور ذلك "الستار الحديدي" القديم. إنّها صورةٌ لعصر آخر ليس ببعيد، بقلم واحد من أعظم الكتّاب.

«ليس الستار الحديديّ ستارًا ولا هو من حديد. إنّه مجرّد عارضة خشبيّة مطليّة بالأحمر والأبيض مثل إشارات صالونات التجميل. وبعد أن أمضيت وراءه ثلاثة أشهر، أدركت أنّه كان من قلّة البصيرة أن أتوقّع منه أن يكون ستارًا فعلًا، أو أن يكون حقًّا من حديد. لكنّ سنوات من الدعاية الغربيّة الدؤوبة، والضخّ الإعلامي على مدار الساعة يؤدّي إلى تغييب الحسّ السليم عند المرء».

«كنّا ثلاثة في تلك المغامرة: جاكلين، وهي صحافية فرنسيّة، وفرانكو، جوّال لا مقرّ له إلّا حيث يداهمه الليل. أمّا الثالث فكنت أنا. بدأت الحكاية في أحد مقاهي فرانكفورت، في صباح يوم من شهر حزيران. كان فرانكو قد اشترى سيّارة فرنسيّة، ولم يكن يدري ما هو فاعلٌ بها، فاقترح علينا 'أن نذهب ونرى ما يجري وراء الستار الحديديّ'».

انطلقت الرحلة من برلين وتوقفت في فرصوفيا وبراغ وموسكو... حيث سنتعرّف إلى صورة هذه المدن خلال عقود هيمنة الاتحاد السوفياتي الذي سيطر على نصف أوروبا تقريبًا.

رحلة تأتي في سياق تاريخي مهم لفهم القرن الماضي في أوروبا حيث كانت بصمة الحرب العالمية الثانية لا تزال حاضرةً وملحوظة بشكل واضح. وحيث كل شيء قديم ومتهالك... حتى الناس...

إنها اللاتجربة الإشتراكية... ليست الإشتراكية، كما حلُمَ بها مئات الملايين... وهذا ما سيظهر من خلال ما كتبه ماركيز بصدق، بل ربما بأسى...

daraltanweer.com
مكتبة
t.me/soramnqraa
470 يوم
غزة